

# رسائل ابن العميد دراسة فنية

إعداد  
رامي عثمان المرابطة

المشرف  
الأستاذ الدكتور هاني صبحي العميد

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا  
الجامعة الأردنية

تشرين الأول، ٢٠٠٨

تتعمد كلية الدراسات العليا  
هذه النسخة من الرسالة  
التوقيع: ١١.١.٠٨

ب

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة / الأطروحة (رسائل ابن العميد دراسة فنية) وأجيزت بتاريخ  
٣ / ٨ / ٢٠٠٨ م.

التوقيع

أعضاء لجنة المناقشة

.....

الدكتور هاني صبحي العمدة، مشرفاً  
أستاذ - الأدب الشعبي

.....

الدكتور ياسين يوسف خليل، عضواً  
أستاذ مشارك - الأدب العباسي

.....

الدكتور محمد علي أبو حمدة، عضواً  
أستاذ مساعد - النقد الأدبي

.....

الدكتور عفيف محمد عبد الرحمن، عضواً  
أستاذ - الأدب الجاهلي - (إمامة البلاء للهبة)

.....

تعتمد كلية الدراسات العليا  
هذه النسخة من الرسالة  
التوقيع: ..... التاريخ: .....  
.....

## الإهداء

\* إلى أبي وأمي العزيزين أطال الله في عمريهما ومتعهما بالصحة والعافية، فقد كانا خير معين لي بعد الله عز وجل بدعائهما وتشجيعهما داعياً المولى جلّت قدرته أن يجعل في كل حرف من حروف هذه الرسالة حسنة في ميزان حسناتهما.

\* إلى من دعموني وشجعوني، إلى إخواني وأخواتي الأعزاء.

\* إلى رفيقة درب زوجتي الغالية التي وقفت بجانبني وضحت بالكثير من أجلي.

\* إلى الزملاء في العمل والدراسة والأصدقاء وطلاب العلم أهدي هذا الجهد المتواضع، مع فائق الحب والتقدير والثناء والعرفان، والحمد لله رب العالمين.

الباحث

رامي عثمان المرابطة

## الشكر والتقدير

\* بعد حمد الله وشكره سبحانه وتعالى على نعمته في انجاز هذه الرسالة، أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان لأستاذي المشرف على هذه الرسالة الاستاذ الدكتور هاني العمدة على رحابة صدره وسعة علمه، وكريم ما تفضل به من تقديم النصح والارشاد لإتمام هذه الرسالة، فعظيم شكري له عرفاناً بالجميل.

\* كما أتقدم بالشكر والعرفان للجنة المناقشة بتفضلها بالمناقشة، بمناقشة هذه الرسالة ، شاكرًا لهم آرائهم وملاحظاتهم التي ستثري الدراسة وموضوعاتها.

الباحث  
رامي عثمان المرابط

## فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ب	قرار لجنة المناقشة
ج	الإهداء
د	شكر وتقدير
هـ	فهرس المحتويات
ز	الملخص باللغة العربية
1	المقدمة
4	الفصل الأول
9	ابن العميد وأبرز التطورات التي حدثت على الكتابة في عصره ملاحظات عامة على الكتابة في القرن الرابع هجري.
11	دولة بني بُوَيَهِ (دور البويهيين في التجديد في مجال الأدب)
15	نشأة ابن العميد
17	وزارته وألقابه
17	العلوم التي اشتهر بها
32	مصادر ثقافته (شيوخه)
24	مؤلفاته
26	الفصل الثاني
26	صورة ابن العميد عند الثعالبي والتوحيدي ومسكويه والمنتبي
26	أولاً: الثعالبي
27	ثانياً: التوحيدي
35	ثالثاً: مسكويه
40	الردود على آراء الثعالبي والتوحيدي ومسكويه
40	رسالة التوحيدي لابن العميد يستعطفه
46	رابعاً: المنتبي

	الفصل الثالث
56	نصوص رسائل ابن العميد وتحليلها
56	1. الرسائل الرسمية
56	رسالة ابن العميد إلى الصاحب بن عباد
62	رسالة من ابن العميد إلى ابن بلكا
67	رسالة إلى قاضي أصفهان بالتبرؤ من ولده
72	رسالة تهنئة إلى عضد الدولة
78	2. الرسائل الإخوانية:
79	رسالة من ابن العميد إلى بعض إخوانه:
83	رسالة ابن العميد إلى أبي عبدالله المكي نديم عضد الدولة
84	كتاب ابن العميد لأبي دلف الخزرجي
89	ومن رسائله في التهنة ما أرسله إلى عضد الدولة يهنئه بالولدين
90	رسالة إلى بعض إخوانه
94	رسالة إلى ابنه أبي الفتح يوصيه بأهل قزوين
95	رسائله إلى ابن أبي عبد الله الطبري
116	3. وصف السفن
117	رسالة في فتح
119	رسالة من ابن العميد في شهر رمضان
124	الخاتمة
126	المصادر والمراجع
131	الملخص باللغة الانجليزية

## رسائل ابن العميد دراسة فنيّة

إعداد

رامي عثمان المرابطة

المشرف

الأستاذ الدكتور هاني صبحي العميد

## الملخص

لقد ركزت هذه الرسالة على جميع أخبار ابن العميد ورسائله، فتعتبر هذه الدراسة أول دراسة اهتمت بهذا الموضوع، فقامت على ثلاثة فصول: ركز الأول منها تطور الكتابة في العصر العباسي - ولا سيّما الثاني منها- إذ أظهر كيف تطوّرت موضوعات الرسائل؟ فهي عبّرت عن موضوعات كان الشعر مسرحاً لهما وما هي أبرز الظواهر الفنيّة التي سيطرت على الرسائل؟ وخلصت إلى أن السجع أصبح الثوب المطرّز الذي يطرز الرسائل في القرن الرابع الهجري. وبعد، انتقل الباحث إلى الحديث بإيجاز عن الدولة التي شهدت بزوغ نجم الأستاذ الرئيس ابن العميد، وهي دولة بني بويهز ومن ثم أفرد الباحث جزءاً لترجمة أخبار ابن العميد.

وجاء الثاني فيها؛ ليسلط الضوء على آراء النقاد والأدباء فيه بتلك الحقبة؛ فابتدأ بالشعالي الذي يعتبر أكثرهم اعتدالاً وموضوعية، وبعد؛ عرض إلى اثنين يمثلان قمة في تناقضهما في حبهما وكرههما لشخص ابن العميد، ألا وهما: مسكويه والتوحيدي وردّ على آرائهم وأظهر صفات ابن العميد من خلال قصيدتين للمتبي، يرى الباحث أن المتبي بالغ فيهم كثيراً في مدح ابن العميد، ولا يظهر الفارئ أنّ هاتين القصيدتين هما الوحيدتان للمتبي في مدحه بل عرض الباحث لمطالع قصائد أخرى له في مدح الأستاذ الرئيس وكانت النتيجة أن الجميع شهدوا له بالعلميّة، على الرغم من اختلافهم في التعبير عن صفاته الشخصية.

وأما الثالث؛ فهو جسم هذا البحث، فقد تناول نصوص الرسائل التي استطاع الباحث جمعها، وعمل على تقسيمها إلا ثلاثة أقسام: إخوانية ورسمية وتأملية، وتناولها كلّ على حدة، وحللها مبرزاً ما فيها من فنون أدبية ومحسنات بديعية، وبعد هذا التحليل يرى الباحث أنه أضاف إلى المكتبات العربية دراسة أحييت نصوصاً قد ماتت أو أهملت لسبب مقصود أو غير مقصود، وهذا يصلح ليكون بحثاً في المستقبل للدارسين. والله ولي التوفيق.



## المقدمة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على الرسول المصطفى،

لقد نبعت فكرة هذا البحث بعد الاطلاع على عبارة أوردها الثعالبي في كتابه اليتيمة وهي "بدأت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد"؛ فالباحث اطلع على الدراسات السابقة، ورأى أن عبد الحميد قد اشبع بالدراسة، ولكن خاتم الرسائل كما يقول الثعالبي لم تدرس رسائله ولم تجمع ولم يوجد منها إلا الشيء اليسير في ثنايا الكتب مطروحة على شكل إستشهاد للفنون الأدبية. والذي أعطى هذا البحث المزيد من الصعوبة في الحصول على المعلومات؛ هو ضياع معظم آثار ابن العميد، فلم يستطع الباحث أن يعثر على اثر أو على كتاب من كتب ابن العميد التي كتبها بيده.

ولقد جاءت هذه الأطروحة على ثلاثة فصول، تناول الباحث في الفصل الأول منها تطور الرسائل والسماط التي غلبت عليها في القرن الرابع الهجري، كما افرد جزء من الفصل الأول للحديث عن دولة بني بويه، وهي الدولة التي شهدت بزوغ نجم ابن العميد. أما الجزء الأخير من هذا الفصل فقد جاء عن نشأة ابن العميد وبرز أخباره.

وبعد هذا انتقل الباحث إلى الفصل الثاني، وعرض فيه صورة ابن العميد عند الأدباء والنقاد. فقد تناول الثعالبي ومسكويه والتوحيدى، فعرض آراءهم بابن العميد وناقشها وفندها محاولاً الرد عليها، ومن ثم عرض قصائد المتنبي في ابن العميد والصفات التي أحالها المتنبي على شخص الأستاذ الرئيس والتي كانت كالمطر الغزير.

وأما الفصل الأخير من هذا البحث، فقد حرص الباحث فيه على أن يقدم ما استطاع أن يحصل عليه من نماذج أدبية لرسائل ابن العميد، وتقسيماً إلى اخوانية ورسمية وتأملية.

ومن ثم قام الباحث بدراسة كل نموذج على حدة، وتحليله مبرزاً ما احتواه من الأساليب الموضوعية والفنية بنظرة سريعة.

في هذا المجال يجب ان يذكر لاصحاب الفضل فضلهم , لذا يقدم الباحث امتنانه لأستاذه الفاضل الدكتور هاني العمدة الذي كان له الدور الكبير في اخراج هذا النتاج الى النور وكانت لتقويماته الاثر الكبير في أن تخرج هذه الأطروحة بالصورة التي هي عليها

هذا ابرز ما تضمنته هذه الأطروحة، والتي كان همها الأكبر أن تحيي نصوصا من عيون الأدب العربي لم تأخذ حظها من الدراسة والتحليل. كما وعنيت هذه الأطروحة بتسجيل أخبار الوزير ابن العميد ودوره في تطور الرسائل.

وبعد الدراسة، وجد الباحث على الرغم من قلة المصادر انه استطاع الوقوف على نتاج أدبي لإستاذنا يستحق من الباحث كل هذا التعب.

## الفصل الأول

ابن العميد وأبرز سمات عصره

## الفصل الأول

### ابن العميد وأبرز سمات عصره

قبل الحديث عن كاتب من أشهر كتاب الرسائل وهو ابن العميد، يرى الباحث ضرورة الحديث عن واقع الرسائل في تلك الحقبة من الزمن، والتي تمثل بداية العصر العباسي الثاني، وتمتد من " 232هـ إلى 334هـ سنة ظهور الدولة البويهية"<sup>(1)</sup>. إذ أن الدراسات أشارت إلى أن الرسائل كانت تمثل وسيلة الإعلام الأولى في تلك الحقبة، وازداد اهتمام الخلفاء والأمراء بالرسائل منذ مطلع القرن الرابع الهجري، إذ أصبح الخليفة يعين نفسه وزيراً، ويشترط فيه أن يكون أديباً أو كاتباً بارعاً، وربما نستطيع القول بصحة أو ضرورة ذلك، فهذا الوزير يقوم بالرد على الرسائل الواردة من الدول الأخرى، إذا فهو يعكس ثقافة الدولة إلى الخارج. وازداد الاهتمام بالرسائل حتى أصبحت كافة القضايا تعالج من خلالها، فمثلاً إذا أراد الخليفة إصدار أمر ما للناس على شكل بلاغ أو منشور، يقرأ عليهم من قبل الخليفة نفسه أو من قبل احد أعوانه، وهذا ينطبق أيضاً على الولاية، فكان اتصالهم بالخلفاء يكون عبر هذه الرسائل، وهذا عائد لاتساع رقعة الدولة وتباعد ولاياتها.

وهذا طبيعي أيضاً؛ لان الرسائل هي وسيلة الاتصال الوحيدة المتاحة آنذاك. ومما أعطى الرسائل هذه الأهمية؛ استخدامها لمبايعة الخلفاء وخلعهم، وان كانت المبايعات منتشرة أكثر من الخلع، الذي لم ينتشر إلا في فترات ضعف الدولة، إذ كان الخليفة يجبر على خلع نفسه، ويعبر عن ذلك برسالة يقرأها أمام حشد من الناس وأمام الخليفة الجديد، ويعبر فيها عن عدم قدرته على تحمل المسؤولية.

هذا من الناحية الرسمية، أما من الناحية الاخوانية فانتشرت الرسائل في مختلف المناسبات الاجتماعية، كالتعزية والعيادة والتهنئة وسائر ضروب الحياة الاجتماعية الأخرى. وكان من أكثر هذه الرسائل شيوعاً، رسائل التهنئة ولا سيما التي تكون في التهنئة بالمناسبات كقدوم المولود ونقلد المناصب وغير ذلك.

(1) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة، دار الهلال، ج2، راجعها وعلق عليها: شوقي ضيف، دار الهلال: القاهرة ص177.

وسيعرض الباحث في الفصل الثالث من هذه الدراسة رسالتين على لسان ابن العميد إلى عضد الدولة، يهنئه بقدم توأمين له، وكانت التهنية تكون على قدر المهني؛ من حيث اختيار العبارات ومعرفة مكانة صاحب التهنية.

من هنا نلاحظ أن التهنية أصبحت تمثل رديفاً أو بديلاً لشعر المدح، وهذا ينطبق على التعزية التي أصبحت تمثل شعر الرثاء. وهذان الميدانان يظهران بشكل جلي العواطف والوجد بين الأشخاص، وانتشرت هذه الرسائل في هذه الحقبة انتشاراً واسعاً، حتى أصبح يباهى بها. ومن هنا يمكن للباحث أن يصوغ اهتمام الخلفاء بتعيين الأدباء وزراء لهم، ونلاحظ هذا جلياً عند خلفاء بني بويه، الذين وزر لهم أبو الفضل ابن العميد الذي سيذكره الباحث بشكل من التفصيل في ثنايا هذا الفصل، والصاحب بن عباد وأبو الفتح ابن أبي الفضل ابن العميد.

ومن ضروب الرسائل التي انتشرت في هذا العصر، الرسائل الخاصة بالدعوة؛ فهي تكون عادة أقرب للرسائل الاخوانية من الرسائل الرسمية، واختلفت موضوعات هذه الرسائل باختلاف المخاطب والمخاطب، فمن الدعوات ما يكون للحضور والمشاهدة ليعمر المخاطب مجلس المخاطب، ومنها ما يكون دعوة لعودة احد خرج على الخليفة أو الدولة، ومن أمثلة ذلك رسالة ابن العميد إلى ابن بلكا لرده إلى طاعة صاحبه ركن الدولة، وهناك أمثلة أخرى من رسائل ابن العميد على الدعوة، كبعض رسائله إلى أبي عبد الله الطبري التي صور فيها اعلي درجات الشوق والاشتياق إلى صاحبه.

ومن الرسائل التي انتشرت أيضاً رسائل العلاقات الشخصية، ولا يظن الباحث أن هذا النوع من الرسائل لم يكن موجوداً قبل هذا العصر؛ إذ أن العلاقات الشخصية قائمة منذ بدء الخليقة وان كانت بعض المظان تغالي وتجعل بداية لهذا الفن وتحددها بسنة معينة، ولكن الأدب برمته قد حصل عليه تطورات هائلة في الحقبة العباسية؛ إذ كانت هذه الحقبة حقبة ازدهار ونماء في كل شيء، وما يعيننا في الحديث هنا هو الرسائل؛ فقد أبدع العباسيون في استخدامها وتطويرها، وهذا عائد للبيئة المحيطة، ونبغ أكثر من أديب وكاتب رسائل ذاع صيته في تلك الحقبة، وأصبحت الرسائل فناً يفوق الشعر في بعض الأحيان ويأخذ اختصاصاته.

ومن فنون الرسائل التي ربما تكون قد بدأت في هذا العصر هي فن الشكوى، وأبدع أستاذنا في هذا الفن حينما شكى الدهر وخيانتته، كما ستراه في رسالة ابن العميد إلى بعض إخوانه، وأبدع أيضا في شكواه من ولده في رسالته إلى القاضي بالتبرؤ منه. ومن ابرز سمات هذا النوع من الفنون:

(1) الشكوى من الزمان ونوائبه.

(2) الشكوى من شخص قام بفعل مشين وغير ذلك من ضروب الشكوى<sup>(1)</sup>.

وأخذت ظاهرة السجع تطغى على فن الرسائل وعلى الأدب بشكل عام، ولا نعني بذلك أنها لم تكن موجودة من قبل، بل هي ظاهرة متأصلة منذ العصر الجاهلي ولكن الذي نعنيه هنا أن السجع أصبح صنعة محكمة في هذا القرن، وأصبح الكتاب والأدباء يتبارون في صنعته، وزادوا على هذا فاشتروا له شروطا للقوة والضعف، وأي السجع اقوي وما الذي يليه وغير ذلك. وسنرى كيف غلبت هذه الظاهرة على رسائل ابن العميد، وهي التي تمثل نموذجا واضحا للفن في هذا القرن في الفصل الثالث من هذه الأطروحة، وما ينطبق على السجع ينطبق على البديع بشكل عام، وأشار أنيس المقدسي في كتابه تطور الأساليب النثرية أن السجع "أصبح الزي الإنشائي السائد"<sup>(2)</sup>

ومما يميز القرن الرابع الهجري، أن موضوعات الشعر؛ والتي كانت حkra عليه أصبح النثر مسرحا لها، وقد رأى بعض الأدباء والنقاد أن النثر إذا عبر عن موضوعات الشعر كان أقوى؛ لأنه غير مقيد بقيود الوزن والقافية، ومن الذين ذهبوا هذا المذهب الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر في القرن الرابع الهجري<sup>(3)</sup>.

ومما يستطيع الباحث أن يذكره، أن القرن الرابع كان قرناً مفصلياً للنثر العربي بشكل خاص؛ إذ أن النثر فيه بلغ ذروته حتى أصبح صنعة يحترفها الكتاب والأدباء، وسيطر النثر على كل الموضوعات التي كانت من اختصاص الشعر، وهذا عائد إلى أن القرن الرابع قد اخذ خلاصة ما قبله من عصور وأبدعها في قوالب إنشائية جديدة. إذن فهو طور على ما قبله واتعب ما بعده؛ لان النقاد

(1) أنيس المقدسي، 1960، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين: بيروت، ص 207-217.

(2) محمد محمود الدروبي، انظر كتاب الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث هجري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(3) زكي مبارك، 1975، النثر الفني، ج1، دار الجيل: بيروت، ص 235.

والأدباء فيما بعد القرن الرابع الهجري انقسموا إلى مؤيد لهذا المذهب ومخالف له، بل ومهاجم إلى تلك الصنعة. ويؤكد هنا الدكتور زكي مبارك حينما يتساءل عن الزخرف والصنعة فيقول: "ولكن أليس لهذا الزخرف قيمة في فهم ذلك العصر؟" ويجيب "بلى انه يدلنا على أن أولئك الناس عرفوا لغتهم معفة جيدة ووقفوا على أسرارها وطرائق تعبيرها" (1).

ولكن ليست الصنعة دائما دليلاً على القوة والإتقان، فمن الصنعة ما يضر بالأدب ويذهب به إلى الغموض، ومنها ما يجعل الأدب ينساب بعبارات رقراقة على نفس القارئ، وهذا ما ذهب إليه زكي مبارك حينما قسم الصنعة إلى قسمين: "وجه جميل يدل على حذقهم وبراعتهم ووجه آخر يدل على بعدهم من غاية البيان وهي الوضوح فان الاغراق في الصنعة باب من الغموض" (2).

ومن المهم أن نؤكد أن هذه التطورات التي حصلت على ضروب الأدب بشكل عام أنها لم تكن وليدة القرن الرابع ولكنها موجودة منذ الجاهلية، إلا قد اختفت أو خفت نجمها في القرون الثلاثة للهجرة، ويعد بعض الكتاب أن مجيء الإسلام كان سببا في ذلك؛ إذ حرص المجتمع الإسلامي على عدم التشبه بالجاهلية وخاصة الكهان، ولهذا نجد أن السجع في صدر الإسلام لم يأخذ الحظ الكبير من الانتشار. ومن الذين ذهبوا هذا المذهب الشيخ علي حب الله في كتابه (المقدمة في نقد النثر العربي)، إذ أورد قصة حكم فيها النبي بالدية، وجاءت أحداثها على شكل سجع، فاستنكر النبي صلى الله عليه وسلم قائلا: "أسجعا كسجع الكهان" (3).

ويُعزى أيضا خشية المسلمين على أن يختلط السجع بالقران الكريم، ويرى الباحث أن هذا ربما كان صحيحا، إلا أن الباحث يذهب إلى أن الحياة في بداية الدولة الإسلامية كانت بعيدة عن التعقيد وتميل إلى البساطة، ومن الممكن أن يكون للأمر الديني شأن في هذا المجال. ومن الأمور التي يتفق بها الباحث مع صاحب المقدمة في نقد النثر، هو غياب التدوين وانشغال المسلمين في تدوين القران والسنة، فلم تصلنا النماذج النثرية بشكل كامل بل وصلنا الشيء اليسير منها. وربما كان السجع موجودا في المشافهة، فقوم عاشوا الجاهلية وسجع كهانها من الطبيعي أن لا تتسلخ هذه الظاهرة من

(1) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع هجري، ج1، ط2، ص179، مصر، المكتبة التجارية الكبرى.

(2) المصدر نفسه، ص179.

(3) الشيخ علي حب الله، 2001م، المقدمة في نقد النثر العربي، ط1، دار الهادي للطباعة والنشر: بيروت، لبنان، ص119؛ نقلا عن البيان والتبيين للجاحظ، 2001، تقديم: نهاد نور الدين، منشورات وزارة الثقافة: دمشق ص313.

كلامهم مباشرة وان عمدوا إليها، ولكن قلة التدوين جعلتنا لا نستطيع أن نركن إلى رأي فصل في هذا المجال.

ويذهب علي حب الله إلى الأسباب التي أدت إلى تطور السجع في القرن الرابع الهجري، وهو قرن شهد تطوراً في شتى مجالات الحياة فيقول: "إن بروز الإرادة السياسية في توجيه الأدب وتفعيله إلى جانب ميل الحياة الاجتماعية إلى الزخرفة والتنميق، ظهر ذلك في زخرفة ثيابهم وتذويق بيوتهم ودورهم ومجالس ضيافتهم."<sup>(1)</sup>

والباحث إذ يسلم بهذا الرأي فسببه في ذلك معرفته بالتطور الهائل الذي شهدته الحياة في العصر العباسي بشكل عام؛ إذ وصل الأدب فيه إلى ذروته، والقرن الرابع يمثل العصر العباسي الثاني، وفيه ظهرت كثير من الدول والإمارات وبدأت تتنافس فيما بينها، وكان الأدب مسرحاً أو ميداناً لهذا التنافس. فلننظر إلى بني بويه، فكان أمراءها يشترطون في وزراءهم أن يكونوا كتاباً أو أدباء، ومن أشهر من وزر لهم ابن العميد والصاحب بن عباد وابنه أبو الفتح وغيرهم. ومن كان يتقن الكتابة والصناعة الأدبية كان له باب سعه؛ إذ أن كثيراً من الأمراء كانوا يشترطون فيمن يعينوه أن يكونوا مجيدين للكتابة والصناعة الأدبية، وكيف لا يكون ذلك والقرن الرابع الهجري مليء بالزخرف والإبداع وشهد نبوغ الكثير من فحول الشعر والأدب، ولا يتسع هذا المقام هنا لذكرهم، فمنهم على سبيل المثال لا الحصر ابن العميد والمتنبي والجاحظ في فترة سابقة لهم، إلا أنه من المدرسة العباسية وغيرهم.

هكذا نلاحظ أن السياسة لعبت دوراً في تطور الأدب في القرن الرابع الهجري، وربما تستطيع القول أن من أسباب تطور الكتابة ما يلي:

1. دعم الخلافة.
2. الاستعطف.
3. الوصايا والنصائح.
4. مصانعة الكلام.

(1) الشيخ علي حب الله، 2001م، المقدمة في نقد النثر العربي، المصدر السابق، ص120.



5. نشاط حركة الترجمة من اليونانية والفارسية بمراحلها العقلية والعقلية<sup>(1)</sup>.

والخلافة العباسية تكاد تكون هي المشرف الإسلامي من بلاد فارس وما جاورها إلى العراق، وقد كانت الحركة العلمية والنهضة الفكرية مدينة لأرباب الثقافة والمعرفة من أهالي هذه البلاد، الذي كانت لهم أياد من البر والخير أسدوها إلى الأدب والشعر والفكر والمنطق والعلم والحضارة. وإذا كان الحديث عن الكتابة يقتضي أن نشعب القول فيها إلى مشرق ومغرب؛ فإن ذلك إنما يجيء من ناحية أن المشرق كان دائماً وابتداءً مركز الحس والحركة ونقطة التحول - كما يقولون - ومقياس تأثر العرب بالفرس وأخذهم منهم أو توجيههم لهم.

وظهر ذلك الامتزاج في الشعر والنثر وفي أسلوب التفكير وطريقة إبراز المعاني، وسنعرض شيئاً مفصلاً عن ابن العميد، الذي كان عميد هذه المدرسة وأستاذ جماعة الكتاب الذين تولوا العمل في الدواوين، أو الذين لم يتصلوا بها ولم تتمكن قدمهم منها، وأنها طريقة كانت امتداداً لطريقة الجاحظ إلى حد ما مع زيادة في الأناقة واللجوء إلى بعض المحسنات البديعية، وإطباب في سرد الحقائق وعرض القضايا. وانه في الوقت الذي كان على خشبة المسرح الأدبي أمثال ابن العميد والوزير المهلبى أو صاحب بن عباد وأبي إسحاق الصابي وابن وشمكير الذي كان من بيت الملك وأصحاب السيادة والسلطان في الدولة، كان هناك كتاب آخرون ليسوا من السادة ولا أرباب الجاه<sup>(2)</sup>.

### ملاحظات عامة على الكتابة في القرن الرابع هجري:

أولاً: كان للكتابة في المشرق طابع الدقة في الخيال، والعمق في التفكير، والتسلسل في المعاني، ولا سيما الانتفاع بالثقافة الفارسية التي كانت الزاد الأول لأبناء تلك الجهات من أهل خراسان وجرجان وطبرستان أو العراق وغيرها من البلاد ذات الحضارة القديمة، والتاريخ المجيد<sup>(3)</sup>.

ثانياً: الكتب التي ألقت في صناعة الإنشاء، وقوانين الكتابة أو أساليب الأدب، وما يجب أن يؤخذ به في النثر أو الشعر، وما يُستكره فيهما أو يعاب على قائلهما، كان أكثرها من هذه الجهات،

(1) لمزيد من الاطلاع على أسباب تطور الكتابة، انظر بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ص 109.

(2) إبراهيم أبو خشب، كتاب تاريخ الأدب العربي، ص 501-502.

(3) المرجع نفسه، ص 517.

ولهؤلاء الذين انحرفوا عن السنن، من الأعاجم والفرس الذين عزّ عليهم أن ينسلخوا من لغة الآباء والأجداد ثم يصيروا عرباً باللسان والبيان، إذ تهاونوا في عربيتهم وحنوا إلى فارسيتهم، فتلبّل ذوقهم، وفسد طبعهم، وانحرفت أقلامهم، وساء بيانهم، وأصبحوا بحاجة إلى معالم يهتدون بها، ويسيروا على ضوئها .

**ثالثاً:** كان كثيرون من الكتاب يميلون إلى إقحام الشعر في رسائلهم، إما على سبيل التضمين والاستشهاد، أو على سبيل دفع السأم، ومنع الملالة، وبخاصة أولئك الكتاب الذين كانوا يضيّقون في ثقافتهم إلى جانب صنعة الكتابة قرض الشعر كالخوارزمي والهمذاني والصابئي والميكالي وابن العميد والوزير المهلبي والصاحب بن عباد.<sup>(1)</sup>

**رابعاً:** كان في الكتابة الأدبية لون من الرسائل يقصد به أصحابه إلى إظهار البراعة في تقصي الحوادث، والإلمام بالتاريخ، وذلك مثل رسالة الهمذاني ورسالة الخوارزمي يتتبع فيها مآسي الشيعة، والاضطهادات التي لاقوها، والمصائب التي قاسوها، والكوارث التي أصابتهم واحدة إثر أخرى.

**خامساً:** تناولت الكتابة الإنشائية كل الموضوعات التي كان الشعر يتناولها من مديح وهجاء، وتتصل واعتذار، وغزل أو تهنئة، أو ما سوى ذلك كله.

**سادساً:** صارت الكتابة في آخر عهدها في هذا العصر حرفة يستعين الكاتب بها على العيش، ويتوسل بها إلى الرزق، ويحتال بها على تحصيل القوت، وتحولت من حلية للكاتب، إلى طريقة من طرق المكاسب، وبذلك أصبح أهلها صوراً تتحرك بالمحاكاة، وتسير بالتقليد، وتندفع من غير إرادة.<sup>(2)</sup>

بعد ظهور ابن العميد، وشيوع طريقته، واستحسانها لدى الكُتّاب، أصبحت هناك ثورة في أسلوب الكتابة، إذ انتصرت الصنعة على الطبع.

(1) ابراهيم ابو الخشب، تاريخ الادب العربي، ص 517.

(2) المصدر نفسه، ص 518.

ولما كان العصر العباسي الثاني وكانت الكتابة الأدبية قد درجت في تلك السنين، وعاشت ذلك الزمن، وكانت لها بيئات متنوعة، ودواوين مختلفة، ومدارس متعددة، والتنافس هنا وهناك قائم على قدم وساق، لم يتحقق الظن في الكتابة الأدبية بتلك المثابة التي كانت منتظرة، ولا بذلك المقدار الذي كان مترقباً، فسرت عدوى المحسنات البديعية البغيضة إليها، وأصبحت ذات حمل تنوء إلى أبعد حد بالصناعات المرذولة، والأصباغ المتكلفة، على الرغم من أنها كانت تصدر عن فحول في البلاغة، ودهاقين في أساليب القول لا تجفل لهم قريحة، ولا يتبلد لهم ذهن، ولا تظلم لهم بصيرة، ولا يكبو لهم فكر، ولا يستعصي عليهم بيان، ولا ينبو لهم لسان.

والمؤرِّخ للكتابة في العصر العباسي الثاني يأخذه العجب كل العجب أن تنتقل تلك الرشاقة الحلوة، والاسترسال البديع، والظرف الممتع، والتداعي الجميل، والفكاهة المحببة، والتحليل للأشياء، والإحاطة بالأوصاف، والعلم بالحقائق، والتمكن من صناعة الكلام، التي كانت تبدو واضحة في أدب الجاحظ، ثم تتحول إلى جمل مسجوعة، وألفاظ مصنوعة، وعبارات تخالف الذوق، وتجاافي سبيل الطبع<sup>(1)</sup>.

### دولة بني بُوَيَه (دور البويهيين في التجديد في مجال الأدب)

وقبل الحديث عن ابن العميد، لا بد من ذكر شيء عن الدولة التي عاش فيها، وهي دولة بني بُوَيَه التي حكمت بين عامي 334-447هـ .

معروف أنّ الإنسان متعلق ببيئته، وامتداد طبيعي لها، وإنه حين يعبر عن إحساسه في أدبه، أو في شعره، فيستمد صورته وأفكاره من متعلقات بيئته. فإذا كانت بيئة صحراوية قاسية، ولدت أدباً رافضاً متمرداً على هذه الظروف، وكاسراً لكل القيود. أما إذا كانت بيئة خضراء، يسودها الرخاء، فنجد أنّ الخيال يكون مطلق العنان. وكيف لا يكون ذلك، وطبيعة البيئة تؤثر حتى في شخصية الإنسان وطبيعته، فلو نظرنا إلى أبناء الطبيعة الصحراوية الحارة كالعراق مثلاً، نرى أنّ العراقي حاد المزاج، وسريع الغضب، على عكس أهل مصر والشام. واختلاف هذه البيئات ينتج لنا أدباً متنوعاً يستعذبه المتلقي.

(1) إبراهيم أبو الخشب، تاريخ الأدب العربي، ص 488.

ومتلما تؤثر المظاهر الطبيعية في الشخصية والأدب، نجد أيضاً تأثيراً كبيراً للمظهر السياسي على الأدب بشقيه: النثر والشعر. فالإنسان يمدح إذا وصل، ويهجو إذا ظلم، أي أنّ نتاجه تأثر لما يحيط به من ظروف، فلا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نعزل الأديب عن بيئته، وأكّد على ذلك محمود الزّهيري في قوله أنّ "الأدب رجع وصدى للبيئة العامة".<sup>(1)</sup>

ظهر بنو بويه في بلاد الدّيلم، فملكوا بلاد فارس، وزحفوا على بغداد، وجعلوها تحت نفوذهم، فلم يبقَ للخليفة على أكثر هذه الدول غير الاسم والرسم<sup>(2)</sup>، و تقع بلاد الدّيلم هذه "في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر"<sup>(3)</sup>، وأهل تلك البلاد ليسوا من العنصر الفارسي، بل عنصر ممتاز يطلق عليه اسم "الدّيالمة"، ولكنّ بني بويه أسرة فارسية تنتسب إلى بهرام جور الملك الساساني، وإنما سُموا بالدّيلم لأنهم سكنوا بلاد الدّيلم. ذكر خليل مردم "أنّ بني بويه كانوا شيعية زيدية غالية"<sup>(4)</sup>.

وللتقافة الفارسية تأثير كبير في الأدب العربي، فقد اختلط الأدباء الفارسيون بالعرب، وحاولوا إظهار الأدب الفارسي بأبهى صورته، وانتشرت المدارس الفارسية التي تهتم بإبراز الثقافة الفارسية، وطبيعي أن من يتخرج منها سيسلك نهجها، وإن كان عربياً.

وتطوّر الأمر إلى أن وصل الأدباء الفارسيون إلى السيادة والتفوق، ويكفي أن نشير إلى بعض هؤلاء لنرى مدى هذا التفوق والتّسيّد في هذه الحقبة. فنذكر -على سبيل المثال لا الحصر- أبا الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وأبا الفتح وغيرهم وسنفرد للحديث عن أبي الفضل وطريقته في الترسل، الجزء الأكبر من موضوع هذا البحث.

وطبيعي أن يكون الأدب قد خالف قديمه في بعض الأمور، مثل المقدمات الطللية وغيرها، فيعد العصر العباسي -بشكل عام- عصر ثورة وتجديد. ومن الطبيعي أيضاً أن الأديب عنصر فعّال في المجتمع، فهو ليس مجرد متفرج، بل إنه يؤثّر ويتأثّر، يفرح ويحزن، ولكنه يختلف عن غيره بأنه يستطيع التعبير عن إحساسه بشكل جيّد من خلال نثره وشعره .

(1) محمود الزّهيري، الأدب في ظل بني بويه، ص 60 .

(2) خليل مردم، ابن العميد، ص 5-6 .

(3) بحر قزوين.

(4) المصدر نفسه، ص 17.

فالأدب والأدباء اختلفا في هذا العصر عن سابقه، بأن أصبح يشترك في كل مجالات الحياة، صغيرها وكبيرها، فنرى الأدب في القصور من خلال الوزراء، كما نراه بين عامة الشعب، بل بين الفئة المُعدمة منهم، وقد تطورت موضوعاته أيضاً.

ولنضرب مثلاً بني بويه، فهم كسائر البشر، تأثروا ببيئتهم بشكل كبير، فمدحوا وتغزلوا بجيدها، وهجوا وذمّوا رديئها، أي أنهم أظهروا الأدب على نقضين. "ونجد في أدبهم المثالي الذي يخلق في السماء، والواقعي الذي يحيا على الأرض؛ ونجد فيهم الباسم والشاكي، ونجد فيهم المحافظ والمحتشم".<sup>(1)</sup> وكان لنشوء الدول والإمارات المختلفة أن نشأ الأدب الذي يتصف بالقوميّة، وهذا مظهر بيئي أيضاً.

ومن معاييب القرن الرابع، أن أصبح الأدب كالبضاعة التي يعرضها بائعها على الناس، فإن استحسنوها أخذوها، وإلا فلا، فنحن نرى الأدباء يتجولون بنتاجهم بين البلدان والقصور، فيكرمهم هذا ويردّهم ذلك.

ولعل بني بويه كانوا مهتمين كثيراً في جلب الأدباء لديهم، ولهم أيادٍ بيضاء على العلم والأدب؛ فقد كانوا يُجلبون أهل الفضل، ولا يعتمدون في أعمالهم إلا عليهم، ووزراؤهم من أعيان الأدباء كابن العميد، وابنه أبي الفتح من بعده، والصاحب بن عبّاد، وأبي محمد الحسن المهلبّي، وسابور بن أردشير، "الذي أنشأ في كرخ بغداد خزانة كتب، وقفها على إفادة الناس، لم يكن في الدنيا أحسن منها"<sup>(2)</sup>، "على أن ملوك آل بويه أنفسهم، اشتهر منهم غير واحد في الأدب والشعر".<sup>(3)</sup>

ولكن ما يثير التساؤل في نفس الباحث: هل بنو بويه وغيرهم كانوا شغوفين بالعلم والأدب؟ أو ما سبب حرصهم على ذلك؟ لعل البحث عن المجد والرفعة وذيوع السيط، من أهم الأسباب التي أدت إلى ذلك، فيكفي أن تُكتب رسالة في قائد، أو قصيدة حتى يذيع اسمه وينتشر. وربما يكون أيضاً سبباً أو مظهراً للتباهي، فكلما كثر الأدباء في مكان، أعطاه ذلك عظمة ورفعة وبهجة.

(1) محمود الزهيري، الأدب في ظل بني بويه، ص 117 .

(2) خليل مردم، ابن العميد، ص 17. بدوي طبانة، الصاحب بن عباد، ص 32.

(3) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج 2، ص 224.

ولا بد من الإشارة إلى أن الأدب في هذه الحقبة، أصبح طريقاً للنجاح، وشرطاً للوظيفة، فمن حُسُن أدبه، ارتفعت مكانته، ومن حُسُن أدبه، جلب لنفسه المكارم ورضا الخليفة.

وانتشر الأدب بين البويهيين أنفسهم، فقد ظهر منهم أدباء كثيرون "مثل عضد الدولة، أعظم ملوك بني بويه، والذي تخرج على ابن العميد في السياسة والأدب"<sup>(1)</sup>، عز الدولة، وأبو العباس وغيرهم. وكانت لهم مجالسهم الأدبية التي تستقطب الشعراء والأدباء من مختلف البقاع والأمصار. ومما يذكر لآل بويه، أنهم عاشوا مع الثقافة العربية، وشجعوا أعلامها على التقدم والنمو.

يقول الأستاذ السباعي بيومي: "كان آل بويه وكثير منهم شعراء يحبون العلم والأدب ويحثون رجالها على التصنيف والتأليف، ويفتحون أبوابهم للشعراء، ويغمرونهم بالعطايا والصلوات، وكانوا لذلك لا يستوزرون ولا يستكتبون إلا خيرة العلماء، ونوابغ الكتاب. فمعز الدولة استوزر الحسن المهلبي، الأديب الشاعر، وركن الدولة استوزر ابن العميد الغني عن التعريف، ومؤيد الدولة ابنه استوزر صاحب بن عباد، وكذلك استوزره فخر الدولة أخوه، وكان عز الدولة ابن معزها شاعراً، وكذلك تاج الدولة ابن عضد الدولة كأبيه، وكذا أبو العباس بن ركن الدولة، ثم كان عضد الدولة المذكور على شاعريته نابغاً في عدة فنون، يستحث العلماء على التأليف، ويغمرهم بالأموال، ويقصده فحول الشعراء كالمتنبي وغيره. ولا يكاد يخلو مجلسه من مباحثات ومباشرات في العلم والأدب، كما كان شغوفاً يجيد الشعر يتعشقه ويحسن نقده، عارفاً بأساليب الكتابة ذا افتتان في إنشائها، فهو في هذه النهضة أشهر ملوك بني بويه، كما كان أشهر وزرائهم فيها صاحب بن عباد المذكور، فقد كان عالماً كاتباً شاعراً، يقيم عنده عشرات من رجال العلم والأدب، ويقصده منهم ومن الشعراء المئات، فيكرم إقامة أولئك، ويحسن وفادة هؤلاء"<sup>(2)</sup>.

وبعد التمعن في البويهيين وأدبهم، نستطيع القول مطمئنين، أنهم أساتذة الصنعة والتأنق، فكان جُل أدبهم معتمداً على السجع المصحوب بالطباق والجناس، فكانوا مهتمين بالتأنق والزخرف العالي، والمبالغات الكبيرة، هذا بعبارة بسيطة، صورة الأدب في ظل بني بويه، وإن لم تكن صورة للأدب في القرن 4 هـ عامة. ولكن ما يهمننا في هذا البحث، التركيز على بني بويه، والذي يؤكد قولنا، أن

(1) خليل مردم، ابن العميد، ص 35.

(2) إبراهيم أبو الخشب، تاريخ الأدب العربي، ص 181.

وزراء البويهيين جميعاً كانوا ولوعين بهذا المذهب "مذهب التأنق والمبالغة"، فمعروف أن ابن العميد، والصاحب بن عباد، والصابي وغيرهم، من أبناء بني بويه، وهم أول من ساروا على هذه الطريقة.

### نشأة ابن العميد

"هو أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب المعروف بابن العميد"<sup>(1)</sup>. يرجع أبو الفضل إلى "أسرة فارسية من مدينة قُم الفارسية الشيعية"<sup>(2)</sup>، وأشارت الدراسات أنه "زعيم مدرسة الصنعة"<sup>(3)</sup>.

أشار الأصبهاني في كتابه "رياض العلماء" أن ابن العميد شيعي المذهب<sup>(4)</sup>، كما أورد صاحب كتاب "طبقات أعلام الشيعة" ذلك، ودلّ على ذلك من خلال ما ذكره بأنه فاز بلقاء الحجة عند تهنئة أبيه بولادته في سامراء.

لم تؤكد المصادر سنة ميلاد ابن العميد بدقة، ولكنها كلها أجمعت على أن تكون ولادته إما في السنة الأخيرة من القرن الثالث الهجري، أي سنة (299هـ، 912م)، أو في السنة الأولى من القرن الرابع الهجري. ولم يعمر ابن العميد في هذه الدنيا طويلاً، إذ لم ينج من الأمراض اللعينة، فقد أصيب بالقولنج والنقرس، وكان كل واحد منهما متعباً له أكثر من الآخر، وفي ذلك سأله سائل: "أيهما أصعب عليك وأشق؟ فأجاب: إذا عارضني النقرس فكأنني بين فكي سبع يمضغني، وإذا عتراني القولنج وددت لو استبدلت النقرس عنه"<sup>(5)</sup>.

ومتلماً اختلف في سنة الولادة، اختلف في سنة الوفاة ومكانها، فأورد ابن خلكان تاريخين ربما يكون أحدهما هو الصواب، وهما: في صفر، وقيل في المحرم بالري، وقيل في بغداد، سنة ستين وثلاثمائة، - رحمه الله تعالى - . و أورد ياقوت في معجم الأدباء، أنه توفي بهمدان في صفر ليلة الخميس السادس منه سنة (360هـ، 970م).

(1) الزركلي، معجم الأعلام، ص328.

(2) أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية، ج6، ص242. الأصبهاني، رياض العلماء، ص27.

(3) د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، ص205-212.

(4) رياض العلماء، ص27.

(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص110.

"وذكر أبو الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي في كتاب (الوزراء)، أنه توفي في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وكذا قال جده إبراهيم الصابي في كتاب (التاجي)"<sup>(1)</sup>. وأورد صاحب كتاب (العبر) " أن ابن العميد عمّر ثمانين عاماً"<sup>(2)</sup>، فهو بذلك زاد على كل التواريخ السابقة عشرين أو قرابة العشرين عاماً، ولكنه لم يحدد تاريخ ومكان الوفاة، والله أعلم بالصواب. وأياً كان تاريخ الولادة والوفاة، فإن ذلك لا ينقص ولا يزيد في علمه أو أدبه شيئاً.

### وزارته وألقابه

"عمل ابن العميد وزيراً في عهد دولة بويه لركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه الديلمي، وذلك بعد وفاة وزيره أبي علي ابن القمي في سنة 326هـ، وقيل في 328هـ"<sup>(3)</sup>، فحمل أعباء الإدارة وخاض معه غمرات السياسة والحرب"<sup>(4)</sup>.

وقد أشار الدكتور شوقي ضيف في كتابه (عصر الدول والإمارات) أن وزارة ابن العميد استمرت ثلاثاً وثلاثين سنة"<sup>(5)</sup>.

"جاء لقبه (العميد) وراثته عن والده علي بن محمد الإسكافي الكاتب"<sup>(6)</sup>. وقد لقب به على عادة أهل خراسان لإجرائه مجرى التعظيم، ولأبيه أدب وترسل، تؤكد الدراسات على جودتهما، كما أنه "عمل وزيراً لمرداويج"<sup>(7)</sup>.

"لقب ابن العميد بألقاب كثيرة تدل كلها على رفعتته وعلو شأنه، منها الأستاذ، والرئيس، والجاحظ الثاني، كما ذكر صاحب "معاهد التنصيص" لقباً آخر هو الجاحظ الآخر. أما تلقيبه بالجاحظ الثاني والجاحظ الآخر، فهو يعود إلى إعجابه بأدب الجاحظ، فهو يقول عن الجاحظ بأن كتبه تعلم

(1) العبر في خبر من غير، ج2، ص 347.

(2) معجم الأدباء، ج1، ص141. بيتمة الدهر، ج2، ص246. بدوي بن طبانة، صاحب بن عباد، ص15.

(3) الكامل في التاريخ، ص 605.

(4) أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية، ص 242.

(5) شوقي ضيف، 1980، عصر الدول والإمارات، ط2، دار المعارف: القاهرة، ص 656.

(6) الوافي بالوفيات، ص 282. معجم الأدباء، ج4، ص 1870.

(7) الكامل في التاريخ، ص 605.



العقل أولاً والأدب ثانياً<sup>(1)</sup>. وإذا قلنا إن ابن العميد كان امتداداً لزمن الجاحظ بعد أحمد ابن يوسف كاتب الدولة الطولونية، لم نقل هذا القول تخيلاً، ولم نرسله إرسالاً، أو نتوهمه توهماً، ونحيلك في ذلك إلى رسائله المنثورة، وكتابه المتداولة، وجمله المنقولة، لنرى إلى أي حد كان ذلك الشبه بينه وبين الجاحظ في العبارات، وسرد الألفاظ، والإطناب في الكلام<sup>(2)</sup>. وهذا موضع دراسة في فصل لاحق.

وكان ابن العميد يقول: "ثلاثة علوم الناس كلها عيال فيها على ثلاثة أنفس، أما الفقه، فعلى أبي حنيفة، وأما الكلام، فعلى أبي هذيل، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة، فعلى أبي عثمان الجاحظ".<sup>(3)</sup>

لم يرث ابن العميد الكتابة عن كلاله، بل كان كما قال ذو الرمة في وصف صائد حازق: "ألقى أباه بذاك الكسب يكتسب"، لأن أباه أبا عبد الله الملقب بكله كان في الرتبة الكبرى من الكتابة، وكان قد تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر، وكان يحضر إلى ديوان الرسائل في محفة لسوء أثر النقرس قي قدمه".<sup>(4)</sup>

### العلوم التي اشتهر بها

كان ابن العميد على دراية عالية بالفلسفة والنجوم، علاوة على الرسائل التي لم يدانيه فيها أحد، فذكر الثعالبي عنه المقولة المشهورة: "بُدئتُ الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد. وقد أجرى ذكرهما معاً مثلاً، أبو محمد الخازن، في قصيدة مدح بها صاحب بن عباد، حيث وصف بلاغته فقال من جملتها:

"وتاركٍ أولاً عبد الحميد بها      وابن العميد أخيراً في بني جاد"<sup>(5)</sup>

(6) خليل مردم، ابن العميد، ص35؛ لم يوتقها خليل مردم، ولكن الباحث أوجد لها توثيقات في مصادر عدة. مرآة الجنان، ج2، ص164؛ معجم الأدياء، ج4، ص492. وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، ج3، ص473؛ التدوين في أخبار قزوين، الامام الرافعي، ج2، ص482.

(7) إبراهيم أبو الخشب، تاريخ الأدب العربي، ص490.

(3) خليل مردم، ابن العميد، ص74.

(4) معاهد التنصيص، ج3، ص116.

(5) دائرة المعارف بطرس البستاني: ج1، ص617.

نشأ ابن العميد شغوفاً بمعرفة العلوم العقلية واللسانية، فبرع في " علوم الحكمة والنجوم، ونبغ في الأدب والكتابة، وابتدع طريقة في الشعر المنثور".<sup>(1)</sup>

لقد كان ابن العميد - بالإضافة إلى منصبه كوزير يدبر أمور الدولة وقائد يخوض المعارك - عالماً، وأديباً، وأستاذاً ماهراً، تخرّج عليه كثير من الأدباء، "كالصاحب وعضد الدولة وابنه أبي الفتح"<sup>(2)</sup>.

وبما أن ابن العميد كان وزيراً وأديباً كبيراً، فهو لم يزل في حياة أبيه وبعد وفاته "بالري وكورة الجبل وفارس يتدرج إلى المعالي، ويزداد فضلاً وبراعة على الأيام والليالي، حتى بلغ ما بلغ واستقر في الذروة من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل وخدمة الكبراء"<sup>(3)</sup>، وكان ممدوحاً للشعراء والأدباء، فمن الذين مدحوه "علي بن عبد الله بن وصيف الناشئ الحلاء ويكنى أبا الحسين"<sup>(4)</sup>، ومن أشهر من مدحه المتنبي في قصيدة مطلعها:

بادِ هواك صبرت أم لم تصبرا      وبكاك إن لم يجر دمك أو جرى

وقد أشار بطرس البستاني إلى أنّ القصيدة كانت في مدح ابن الفرات وحوّلت لابن العميد.

وممن أشار إليه بالرفعة والبنان والبلاغة الرازي، وقد ذكر فيه الشيخ عباس القمي أنه كان يضرب به المثل في البلاغة وينتهي إليه الإشارة بالفصاحة، إن عدت شجعان البراعة فهو ملاعب أسنة الأقلام، أو ذكرت فرسان البراعة فهو ثاني أعنة الكلام<sup>(5)</sup>. وقد قال أبو القاسم علي بن محمد الكرخي وكان شديد الاختصاص بالصاحب انه كثيراً ما كان يقول: "كُتّاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحق الصابي"<sup>(6)</sup> ولم يذكر الرابع ويعني نفسه.

(1) جواهر الأدب، الهاشمي، ج2، ص 152.

(2) الزهيري، الأدب في ظل بني بويهص 128.

(3) معاهد التنصيص، ج2، ص 116.

(4) المصدر نفسه، ص 116.

(5) الكنى والألقاب، ص366.

(6) معجم الأدباء، ج1، ص141؛ يتيمة الدهر، ج2، ص 246؛ الصاحب بن عباد، بدوي طبانة، ص 15.

ومع غزارة علمه، إلا أن المصادر ذكرت أنه يجهل الشرع، فأورد الذهبي عن ذلك قائلاً:  
"وقيل كان مع فنونه لا يدري الشرع، فإذا تكلم أحد بحضرتة في أمر الدين شقّ عليه وخس" (1).

ولم يذكر أحد عن معرفته بالشرع إلا مسكويه في تجاربه، فقد كان له رأي مخالف، إذ أشار إلى معرفة ابن العميد في تأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار، فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة" (2). وأيد ذلك زكي مبارك بالاعتماد على مسكويه، فتحدث عن الأستاذ الرئيس أنه أكتب أبناء عصره وأعرفهم بشعراء الجاهلية والإسلام، وأنفذهم سهماً في الهندسة والمنطق وعلوم النفس والإلهيات.

ومن العجيب أن يكون المترجمون في دراسة الدكتور زكي مبارك قد اتفقوا على معرفة ابن العميد الجيدة في الشرع وتأويل القرآن، وهذا ما خالفه عدد ليس باليسير من الأدباء والكتاب على إنكار ذلك عليه.

واتصف ابن العميد بالدهاء، وقصته مع السلار خير دليل على ذلك، فهو بدهائه استطاع أن يكسب ودّ السلار واطمئنانه له، من خلال ذلك كشف "مواطاة الديلم والمرزبان، واستطاع أيضاً أن يثبت ملكه وقوته فيقبض عليهم جميعاً" (3).

مع هذا كله، لا يمكن إغفال ما تركه ابن العميد لنا من الشعر، فهو شاعر كما هو ناثر، وشعره ذو جودة عالية كما نثره، حتى أن ابن عباد ذكر أن ابن العميد كان "متذوقاً للشعر وناقداً جيداً له" (4).  
فمن شعره قوله:

"يا من تخلى وولى  
وصدّ عني وملا  
وأوسع العهد نكثاً  
وأتبع العقد حلا

(1) تاريخ الإسلام، ص216، سير أعلام النبلاء، ج16، ص137؛ معاهد التنصيص، ج2، ص123، دائرة المعارف، بطرس البستاني، ج1، ص618.

(2) تجارب الأمم، ص316.

(3) أنيس المقدسي تطور الأساليب النثرية، ص243-244.

(4) الأدب في ظل بني بويه، ص128.

عهد الشيبية ولي<sup>(1)</sup>

ما كان عهدك إلا

وقال أيضاً:

نفس أعز عليّ من نفسي

"قامت تظللني من الشمس

شمس تظللني من الشمس"<sup>(2)</sup>

قامت تظللني ومن عجب

كل ذلك جعل منه عاملاً من عوامل النهضة الأدبية والعلمية أيام بني بويه "ممدوحاً وكاتباً ومعلماً ومقارضاً ومكاتباً"<sup>(3)</sup>.

أما علمه، فقد كان ابن العميد فيزيائياً، تبين ذلك من خلال طرحه لعدة أسئلة منها: "لماذا تكثر السحب والرعد والبرق في الربيع والخريف؟، لماذا تمطر السماء في مصر قليلاً وفي الهند بغزارة وبخاصة في الصيف؟، لماذا كان في الجزر ينابيع ماء حلو؟"<sup>(4)</sup>.

وقد وردت إجابات هذه الأسئلة في مخطوطته "الرسائل العميدية"، وقد أشار فؤاد سزكين إلى بعضها.

وكانت لابن العميد مجالس شعرية وهي من المجالس المشهورة، فقد كان يجتمع عنده كبار الشعراء ليتبارزوا فيها، وكان في قصره يمثل المدرّس الذي يُعنى بتدريب طلابه وتمرينهم على قول الشعر، فتراه ينتهز المناسبات، ويطلب إليهم أن ينظموا فيها شعراً، فإذا حيّاه بعض الزائرين بأترجة، قال لهم: تعالوا نتجاذب أهداب وضعنا، وإذا سأل أحد الحاضرين عن قصة له، قال:

وشقاء شقيته

أي جهد لقيته

قال لهم: قولوا على هذا الوزن.

(1) زكي مبارك، انظر النثر الفني ص 237.

(2) الأصبهاني، رياض العلماء، ج 5، ص 97-98.

(3) انظر معاهد التنصيص، ص 121.

(4) فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، مجلد 7.

وهكذا كان ابن العميد "يقارض الأدباء، ويعقد المناظرات الفقهية والكلامية بين الفقهاء والمتكلمين، كما كان يكتب الأصدقاء شعراً ونثراً".<sup>(1)</sup>

وعُرف كذلك بحفظه لأشعار العرب، وقد "حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله".<sup>(2)</sup>

ويتصف الأستاذ الرئيس بأدب النفس وسعة العلم وقلة الكلام إلا عند السؤال، ومن أحسن كلامه الذي يدل على حديثه أنه قال: "خير القول ما أغناك جده وألهاك هزله"<sup>(3)</sup>، وأيضاً قال: "العاقل من افتتح في كل أمر خاتمته وعلم من بدء كل شيء عاقبته"<sup>(4)</sup>، "فإذا سُئل أجاب بما يشفي الصدور، وكان حسن الإصغاء. ويتصف الأستاذ الرئيس أيضاً بالحنكة السياسية والعسكرية، فقد أصلح أوضاع البلاد بعد توليه الوزارة".<sup>(5)</sup>

فورد أنه "في عام 344 هـ (955-956م) زحف الخراسانيون بقيادة محمد بن ماكان على الري وأصفهان فسقطتا في أيديهم، وهزم ابن العميد في أول الأمر حتى إذا شُغل العدو بالأسلاب انقضَّ عليه وأرغمه على الفرار، وجرح ابن ماكان نفسه ووقع أسيراً، واستعاد ابن العميد بذلك أصفهان والري وبقيتا في حوزة ركن الدولة".<sup>(6)</sup>

"وفي عام 355 هـ (966 م) ذاع الخبر بأن جماعة من البدو الرُّحل من خراسان لا يقل عددهم عن عشرين ألفاً خرجوا للجهاد في سبيل الإسلام، وغرضهم الأساسي صد تقدم البيزنطيين، فسمح لهم ركن الدولة بالمرور في أراضيه، فلما وصلوا إلى الري طلبوا من بني بويه إمدادهم بالمال والرجال، فوعدهم ابن العميد بعتاء معتدل، ولما تبينوا أنه ليس في الإمكان إشباع رغباتهم شرعوا في السلب والنهب وهاجموا بيت ابن العميد الذي وقع جريحاً في هذا الشغب، ونجح ركن الدولة في

(1) محمود الزهيري، الأدب في ظل بني بويه، ص 128.

(2) البستاني، دائرة المعارف، ج1، ص 617.

(3) أبو منصور الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، ص 108.

(4) اللطف واللطائف، ص 416.

(5) دائرة المعارف الإسلامية، ج1، ص 355.

(6) المصدر نفسه ص 355.

إجلاء هؤلاء الخراسانيين ولم تغنهم الإمدادات التي وصلتهم، وأحضر الأسرى إلى الري ثم أطلق سراحهم بعد ذلك".<sup>(1)</sup>

وفي "عام 359 هـ خرج ابن العميد على رأس جيش لقتال الزعيم الكردي حسنويه، لكنه توفي في الطريق في صفر عام 360 هـ كما تقول الرواية الشائعة، أو عام 359 هـ في روايات أخرى".<sup>(2)</sup>

وأشارت بعض الدراسات كدراسة الدكتور زكي مبارك إلى أن ابن العميد كان شديد الاهتمام بالعلوم العقلية والنقلية، وهو بهذا يكون شديد التأثر بالجاحظ، حتى أن الدكتور زكي فضّله عليه، فقال: "إن ابن العميد أكتب من الجاحظ وأعرف منه بأسرار الكلام البليغ".<sup>(3)</sup>

وكان ابن العميد مجتهداً في الوصول إلى المعرفة والعلم، إذ لم تشغله الوزارة عن مجالسة العلماء والأدباء، وتذكر الدراسات أنه "كان يقدر من هو على علم ودراية، وقصته مع أبي بكر الخياط خير دليل على ذلك"<sup>(4)</sup>. وكان حافظاً لشعر القدماء، وكان شغوفاً بالاستقصاء والاستدراك على من يلقي عليه شعراً. وذكر ابن العميد أنه تعلم أشياء لم يكن يعرفها من أبي بكر الخياط، وكان جدياً، وينفّر من المزاح الماجن، وله في ذلك قول هو: "المزاح والجد بابان إذا فُتِحا لم يُغلقا إلا بعد العسر، وفحلان إذا ألقوا، لم يُنتجا غير الشر".<sup>(5)</sup>

وكان ابن العميد كارهاً لسيرة ولده أبي الفتح، ولكنه لم يستطع أن يبدي ذلك أو ينكره، وخير دليل على سخطه وغضبه منه، قوله في خلواته: "ما يهلك آل العميد ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي"<sup>(6)</sup> يعني ابنه، وهو يقول في مرضه: "ما قتلني إلا جرع الغيظ التي تجرعتها منه".<sup>(7)</sup>

(1) دائرة المعارف الإسلامية، ج 1، ص 355 .

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 355 .

(3) زكي مبارك، النثر الفني في القرن 4 هـ، ص 235.

(4) النثر الفني في القرن 4 هـ، ص 236؛ معجم الأدباء، ج 4، ص 1588.

(5) خليل مردم، ابن العميد، ص 63 .

(6) معجم الأدباء، ج ع ، ص 278.

(7) المصدر نفسه.

## مصادر ثقافته (شيوخه):

وارتأى الباحث من الأفضل أن يذكر ثقافة ابن العميد وليس شيوخه، لأنه تأثر بشيوخ لم يعاصرهم من أمثال الجاحظ، ولكن المكتبة العربية تعاني من ندرة أخبار الأستاذ الرئيس، فلم تفصل في ذكر شيوخه وتلاميذه إلا القليل. ومن الشيوخ الذين ذكرتهم بعض المصادر: "أحمد بن إسماعيل بن عبد الله القمي، ذكر في أحواله أنه بجلي عربي من أهل قم يلقب سمكة، كان من أهل الفضل والأدب والعلم، يقال إن عليه قرأ أبا الفضل محمد بن الحسين بن العميد، وله عدة كتب لم يصنف مثلها، وكان إسماعيل بن عبد الله من غلمان أحمد بن أبي عبد الله البرقي وممن تأدب عليه، ومن كتبه كتاب العباسي، وهو كتاب عظيم نحو عرة آلاف ورقة في أخبار الخلفاء والدولة العباسية، رأيت منه أخبار الأمين وهو كتاب حسن، وله كتاب الأمثال كتاب حسن مستوفى، ورسالة إلى أبي الفضل بن العميد".<sup>(1)</sup>

"وقد أورد صاحب "معجم الأدباء" عنه أنه كان نحوياً لغوياً إخبارياً، ومن شعره في أبي الفضل بن العميد قوله:

خط فهذا زمان فيه تخليط      والناس اثنان محسود ومغبوط  
ولا تقيمن بأرض لا انتفاع بها      فالأرض واسعة والرزق مبسوط<sup>(2)</sup>

فأجابه ابن العميد:

لا تضجرن بزمان فيه تخليط      إن القضاء بجِدِّ المرء مربوط  
واصبر على الدهر لا تغضب على أحد      فلن ترى غير ما في اللوح مخطوط<sup>(3)</sup>

وذكر التوحيدي "أن ابن العميد كان مهتماً بحاشيته والمقربين إليه، فلم يقرب إليه إلا من كان على درجة عالية من العلم والأدب والشهرة، فقرب إليه الهروي وارتبطه بركن الدولة، وحُمد في

(1) الكنى والألقاب، ص 366 .

(2) معجم الأدباء، ج1، ص 141 .

(3) المصدر نفسه ص141.

الطب بعد الهندسة، وجعل مسكويه خازناً لكتبه<sup>(1)</sup>. ولمسكويه آراء قيمة سيوردها الباحث لاحقاً. كما قرّب إليه أيضاً بغرض الاستفادة من علمه والافتباس منه "أبا جعفر الخازن، وجعل ابن فارس معلماً ومؤدباً لابنه أبي الفتح، ومثلما كان مع أبي جعفر الخازن، صار مع الثّياب البغدادي وابن بندار فكان الغرض من تقريب الأول التزيّد في المنطق، وأما الثاني فقرّبه إليه لينال به المدح وليقتبس مما عنده. وأما مهنة النسخ، فأسندها لأبي طاهر الورّاق"<sup>(2)</sup>.

وللتوحيدي آراء نقدية عن الأستاذ الرئيس سيتطرق إليها الباحث في معرض حديثه عن آراء النقاد في ابن العميد.

### مؤلفاته:

ترك ابن العميد مؤلفات منها: "المذهب في البلاغات، وديوان الرسائل، وديوان في اللغة، والتاريخ، ومن كتبه الخلق والخلق"<sup>(3)</sup>، فقد أورد الذهبي في كتابه (تاريخ الإسلام) "وكان قد ألف كتاباً سماه (الخلق والخلق)، فلم يبيضه، ولم يكن الكتاب بذاك"<sup>(4)</sup> ولكن كتبه هذه لم يعثر عليها في المكتبات العربية التي وجدت في تلك الفترة.

وقد ذكر خليل مردم "أنه لو قُدّر لرسائل ابن العميد أن تبقى، لبلغت مئات من الصفحات، كما يؤخذ من كلام من ترجم له، ولكن اجتياح المغول لبلاد فارس والعراق، ذهب بالقسم العظيم من ميراثنا العلمي والأدبي، وذهبت معه آثار ابن العميد، والبقية الباقية منها ماثورة في كتب الأدب على سبيل الاقتباس والتملُّ"<sup>(5)</sup>.

(1) أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية، ص 243.

(2) مثالب الوزيرين، ص 228.

(3) الفهرست لابن النديم، ج 1، ص 194.

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص 216.

(5) خليل مردم، ابن العميد، ص 44.



## الفصل الثاني

صورة ابن العميد عند الثعالبي والتوحيدي ومسكويه والمتنبي

## الفصل الثاني

### صورة ابن العميد عند الثعالبي والتوحيدي ومسكويه والمتنبي

أولاً: الثعالبي:

يبدأ الباحث حديثه عن ابن العميد من وجهة نظر الثعالبي، فيعرضها ويقدم تعليقه عليها، ومن ثم ينتقل إلى التوحيدي، وأخيراً مسكويه.

أما الثعالبي، فإنه جعل ابن العميد في طليعة الكُتّاب بشكل عام، وكُتّاب القرن الرابع بشكل خاص.

فقال الثعالبي عنه أنه سبق من قبله وأتعب من بعده<sup>(1)</sup>. والثعالبي أورد كل ما يدل على وضعه واقتداره. وعند الحديث عنه كان يكتّبه بالأستاذ تارة، والرئيس تارة أخرى، وجعله بمنزلة الجاحظ، فأطلق عليه "الجاحظ الأخير". وهذا عائذٌ -في رأيه- إلى تشابه علومهما.

وأضاف الثعالبي عنه أنه عينُ المشرق، ولسانُ الجبل، وعمادُ ملك آل بويه، وصدر وزرائهم، وأوحدُ العصر في الكتابة، وجميع أدوات الرياسة، وآلات الوزارة، والضاربُ في الآداب بالسهام الفائزة، والآخذ من العلوم بالأطراف القوية<sup>(2)</sup>.

وأشار الثعالبي إلى أن ابن العميد هو أحد أشهر كُتّاب الرسائل على الإطلاق، بل هو أحد كاتبين ليس لهما ثالث، واستدل على ذلك بما يقال فيهما:

بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد<sup>(3)</sup>.

(1) الثعالبي، بتيمة الدهر، ج3، ص185.

(2) المصدر نفسه، ص183.

(3) المصدر نفسه، ص185.

إذ وصفه بأنه وصل إلى القمة، ولم ي+ورد الثعالبي عن ابن العميد أي نقص أو عيب، لا على الصعيد الشخصي ولا على الصعيد الأدبي، بل كان مهتماً بتنزيه صورته وتلميعها في شتى المجالات الأدبية، من النثر (الرسائل)، والشعر والنقد.

واهتم الثعالبي أيضاً بذكر من مدح ابن العميد من أمثال المتتبي والصاحب بن عباد، وابن خلاد القاضي وغيرهم.

### مصادر كتابته:

وأكد الثعالبي أن ابن العميد لم يأخذ الكتابة عن كلاله، بل أنه ورثها عن أبيه الذي بلغ فيها مبلغاً جيداً، فكان وزيراً وكاتباً. وأشار الثعالبي إلى أن رسائله لا تقل في الحسن عن رسائل ابنه أبي الفضل.

ومتلماً ورث أبو الفضل الوزارة والكتابة عن أبيه، فقد ورثهما لابنه أبي الفتح.

هذا ما رآه الباحث في رأي الثعالبي عن ابن العميد. وينتقل الباحث بعد ذلك للنظر في ما يراه التوحيدي عن هذا الكاتب.

### ثانياً: التوحيدي:

يبدأ التوحيدي حديثه عنه من الناحية الشخصية، فيصفه بالظالم وينزع عنه صفة الحلم والصبر والتجدد وفقدانه لكظم الغيظ، مع الإشارة إلى براعته في الكتابة، فقال عنه:

"وهو مع ذلك في قوله كالأسد في غيله، والنمر في أشبه، والثعبان في وجاره، حتى إذا غمز غمزه، أو وخز وخزة، رأيت معاقد حلمه متحللة، وذخائر صبره منتهبة، وكظمه الذي كان يدل به مفقوداً، وجلده الذي كان يدّعيه باطلاً".<sup>(1)</sup>

(1) مثالب الوزيرين، ص 53.

وأورد قصة عن الجرجاني، أنّ الرئيس أمر بقطع لسان رجل لمجرد شتمه لبلدة فم، وضرب مثلاً عن سوء خلقه عندما شدّ رجلاً في داره إلى شجرة وأخذ يضربه إلى أن مات. وأكد الجرجاني على سوء أخلاق ابن العميد، فقال التوحيدي نقلاً عن الجرجاني عند حديثه عن الوزيرين: "ما يبينان بكرم كبير، وفعال مشهور".<sup>(1)</sup>

وذكر التوحيدي أنّ ابن العميد يدعي صفات لا يمتلكها، كالصبر وسلامة النفس وطيب القلب ورخاء البال. ويشير أيضاً إلى أنه سرعان ما ينكشف ذلك، فحينما يعترض أمراً رغبة ابن العميد، ولا يأتي على هواه، فيكن كمن لا يعرف أصل صفات الصبر والحلم، بل لا يعرف إلا الغضب، فقال: "حتى إذا التوت عليه حال، وتعرس من مراده أمر، وعرض في بعض مطالبة تعفّد، سمعت له هناك، زخرة ونخرة، وضجرة وكفرة، كأن لم يسمع بالحلم والتحمل، والصبر والتصبر، يخرج من فروته عارياً من اللحم والكظم، بادي السوء بالبذاء والجهل، كما يخرج الشعر من العجين".<sup>(2)</sup>

وزاد التوحيدي على أن وصفه بالساقط والبخيل، وكمثال على بخله، يورد التوحيدي قصة قتله مضيفه وهو أبو المحاوش، وهو رجل بدوي، ذكر عنه ابن عبد الرحيم أنه مُحَبٌّ للأكل ومُكثِر فيه. فعندما رأى ابن العميد كثرة أكله، وإسرافه في طلب الأكل، أمر المطبخي أن يأتي باللحم المكتنز ويضعه في عجة وافرة بالبيض الكبير، ويضع عليها السمن الكثير، ففعل وقدمها إلى أبي المحاوش، فأكثر من الأكل حتى اتقد بطنه وخرج نفسه.

ويُعلق ابن عبد الرحيم هذا عندما أراد الرئيس الكرم.

ويُذكر عنه أنه لم يُكرم أبا إسحاق الفارسي، على الرغم من غزارة علمه ومحفوظه للشعر بأشكاله المختلفة.

وأكثر من هذا، فجعل التوحيدي ذكر مساويئ ابن العميد وتوبيخه ضرباً من ضروب الثواب، مثله كمثل أبي جهل.

(1) مثالب الوزيرين، ص 255.

(2) المصدر نفسه، ص 53.

ومع هذا، يشهد التوحيدي لابن العميد بأنه وصاحبه من النوارد في هذه الدنيا، ويذكر بعض محاسنهما، فيقول:

"لم يكن في الأولين والآخرين مثلهما، ولا يكون إلى يوم القيامة من يعشرهما".<sup>(1)</sup>

ويؤكد أيضاً على رفعة مكانتهما العلمية، وبلوغهما القمة في المجد، والذي يعيننا هنا من هذا الحديث هو ابن العميد. فقال عنهما: "وأنتهما بلغا في المجد الذروة الشماء، وأحرزا في كل فضل وعلم قصب السبق".<sup>(2)</sup>

وأكد أيضاً أنّ لهما فضلاً على أهالي الأرض أجمع، ويؤكد على طيب أصلهما.

ولا يستطيع أحد إنكار فضلها ومعارفها وعلومها، فقال التوحيدي: "والتجابه معروفة عند الولي والعدو"<sup>(3)</sup> وأرجع التوحيدي أصل النباهة إلى الأب، أي أنتهما موروثه ومورثة. ولا يستمر التوحيدي على هذا الحال من المدح وذكر السجايا الحسنة لأبي الفضل، بل يعود ويقول عنه أنه مهتم بالعاجلة، وغير مكترث بالأجلة.

ونلاحظ من خلال استعراضنا لرأي التوحيدي، أنه ساخر من شخصية ابن العميد، مع الشهادة لها بالبراعة الأدبية والسياسية. فذكر أنه كان متفوقاً في السياسة والأدب، وناصحاً أميناً لولي نعمته. فقال عنه وعن الصاحب أنتهما بالسياسة عالمين، ولأولياء نعمتهما ناصحين.

وكانه يتمنى بقاءهما في سدة الحكم، لتغيير الحال إلى أحسن منه، وهذا دليل على الشهادة لهما بالحنكة السياسية.

وعاب التوحيدي على ابن العميد طريقة تعامله مع قاصديه، فأوضح أن ابن العميد يريد من الناس أن تكون مجتمعه على مكانة واحدة. وإذا رأى واحداً ذا مكانة أقل، نظر إليه بعين الإهمال. فقال التوحيدي:

(1) مثالب الوزيرين، ص 55.

(2) المصدر نفسه، ص 55.

(3) المصدر نفسه، ص 231، ولم يذكر التوحيدي تعريفاً أو مصدراً يشير إلى هوية ابن عبد الرحيم.

"وما يختل به الرئيس، ويذهل عليه أنه ينظر إلى جماعة بين يديه قد أحسن إلى كل واحد منهم، وقرّبّه وأعطاه واختصه بشيء وأبانه بحال. وإذا رأى واحداً بعد هؤلاء لا نباهة لقدره، ولا جهازة لمنظره، أو لا شهرة لاسمه ومنصبه حقّه".<sup>(1)</sup>

وكأنّ ابن العميد يعد الاتصال به شرفاً لمن يقصده، فمن يقصده يجب أن يكون على قدر معين من الرفعة والمكانة، ولا يجوز أن يكون أقل منه. ودليل ذلك ما أورده التوحيدي لقول الشاعر:

أم ترى ما اصطنعته عند غيري      واجبٌ أن أعدّه لك عندي.

ومع كل ما ذكره عن أبي الفضل من مساوئ وعيوب، إلا أنه فضّله على أبيه وابنه. فقال: "هو مع هذا الطيش والخفة والتقتل والتثني أفضل من أبيه، فإن أباه كان ثوراً خوّاراً، وحماراً نهاقاً، وكان أيضاً يقدح ابنه أبا الفتح".<sup>(2)</sup>

واستمر التوحيدي في الحديث عن ابن العميد، فقد تطور الحال كلما مضينا نكشف عنه هذا الكتاب، فنرى التوحيدي ينزع عن ابن العميد صفة العلمية التي ذكرها هو في بداية الحديث، فجعل يستر بعلمه المدّعى في نظر التوحيدي سفهاً وخصاصة كبيرة. وفي رأيه أن ابن العميد بريء من كل ما ادّعاه من العلوم، كالمنطق.

فقال التوحيدي: "وكان يدّعي المنطق وهو لا يفِي منه بشيء"<sup>(3)</sup>.

كما أشار التوحيدي إلى جهله بالهندسة والكتابة أيضاً، فقال: "ويتشبع بالهندسة وهو منها بعيد. ولم يكن معه من صناعة الكتابة الأصل هو الحساب".<sup>(4)</sup>

واستطرد التوحيدي في الحديث عن معائب أبي الفضل استطراداً يشبه استطرادات الجاحظ؛ فعلاوة على ما ذكره، أضاف أن السياسة علم أجهل ما يكون به ابن العميد وهو يدّعيها، كما قدح به وبسيرته.

(1) مثالب الوزيرين، ص 63.

(2) المصدر نفسه، ص 89.

(3) المصدر نفسه، ص 213.

(4) المصدر نفسه، ص 213.

ويذكر أن أبا الفضل كان يدّعي ما ليس فيه، ويعتمد على الآخرين في تفوّقه، ومنهم أبو علي البيهق. وكُنّا قد أشرنا إلى أن التوحيدى نزع عنه صفة الحلم، وها هو ينزع عنه صفة الحكمة والتدبير، لا بل والحسد والغرور والغيرة. فيورد التوحيدى قصة حصلت بين ابن العميد وأبي طالب الجراحى، مفادها أنّ أبا طالب جاء إلى مجلس ابن العميد، وكان على دراية وعلم كبيرين، فذكر التوحيدى أن ابن العميد اغتاض من ذلك وحزّم في نفسه على التخلص منه، فحاول أن يسمّه. فأدرك أبو طالب ذلك بفطنته، وفرّ هارباً إلى ملك الديلم، المزربان بن محمد في أذربيجان.

ويدلّ التوحيدى بهذا على خسة لا يمكن أن تكون في رئيس أو صاحب فضل، ويرجع سبب هذا إلى الغيرة والحسد.

ويورد التوحيدى كتاباً على لسان الجراحى يعاتب فيه ابن العميد عتاباً شديداً، ويستطرد في ذكر معانيه، فينزع عنه صفات الرئاسة، فيقول في أول الفصل: "حدثني بأى شيء تحتج إذا طولبت بشرائط الرئاسة التي انتحلتها، وأكرهت الناس على تسميتك بها".<sup>(1)</sup>

ويمضى ويذكر صفات الرئيس الحقّة، التي يجب أن تتوفر في الرئيس والوزير، ولم تتوفر في ابن العميد. ويثمه أيضاً بأنه لا يدري ما الرئاسة أصلاً في قوله: "أندري ما الرئاسة؟"<sup>(2)</sup>

ويؤكد حسده وبخله، وادّعائه لعلوم ليس يعرفها، فيقول: "هل عندك أيها الرجل المدّعي للعقل، المفترخ بالمال، والمتعاطي للحكمة، إلا الحسد والنذالة، وإلا الجهالة والضلالة، تزعم أنك من شيعة أفلاطون وسقراط وأرسطو طاليس".<sup>(3)</sup>

والمُتأمل في هذا الكتاب، يرى أن الجراحى أسهب في شتم ابن العميد، وقد يكون هذا يدل على ألم الحادثة، واستخدام ألفاظ في القدر لا ترتقي بمستوى الأدباء والكتّاب، فقال: "أليس أبوك كان قوّاداً، وأبوه كان نخالاً".<sup>(4)</sup> ويؤكد أنّ الوصل بابن العميد ليس ضرباً من ضروب المغنم.

(1) مثالب الوزيرين، ص 214.

(2) المصدر نفسه، ص 214.

(3) المصدر نفسه، ص 215.

(4) المصدر نفسه، ص 215.

ويشير التوحيدي أنّ ابن العميد، ومع كل ما ذكر عنه من الصفات، أنه كان لا يقبل ممن يأتون مجلسه أي مدح وأي ثناء. بل يريد أن يُمدح بأشرف الخصال وأكرمه،<sup>1</sup> ويحب أن تذكر أفعاله، ويفضل أن يرى الدهشة والتعجب على مادحيه، ولا يقبل المدح إلا من كبار القوم وعليتهم، بالرغم من سفهه، وسفه أهله. فيقول: "وفيه مع ذلك كيان مختلّ مجفوّ، وسفّه ضرّة رعناء، وغيمة كنة سليطة".<sup>(1)</sup>

ويُصرّ التوحيدي على إظهار الخصاصة في ابن العميد، فيستمر في إيراد القصص التي تؤكد وتدعم حجّته،<sup>2</sup> فهي هو يذكر قصة يرويها عن القاضي ابن عبد الرحيم، ويذكر أنه مقرب جداً من ابن العميد، فقال التوحيدي: "وكان خصيصاً به، وقهرمان داره، ومشرفاً على غوامض أمره".<sup>(2)</sup>

وتدور هذه القصة حول شاعر أتى ابن العميد، وأنشده شعراً أملاً في العطايا والاستحسان وكرم الضيافة، فذكر أن الشاعر لم يجد ما تمناه عند الأستاذ الرئيس. وذكر أيضاً أن واسطة تدخلت في إقناع ابن العميد أن يعطي هذا الشاعر شيئاً ليقضي به بعض حاجته، فرفض ابن العميد ذلك بشدة، وعلّق على هذا الشعر أنه لا يستحق العطاء، وأن باستطاعته أن يأتي مثله وأكثر. فقال ابن العميد: "وما يريد؟ إن شاء أحبته عن قصيدة في رويها بعدد أبياته وعروضه وأعيان معانيه وأزيد".<sup>(3)</sup>

ومما يؤكد على عدم وصله للشاعر بشيء، وكثرة بُخله، ردّه على روبين، بحديثه عن فضل المال، وعدم التهاون في إنفاقه، أنه جعل يفضل المال على العقل، بل جعله الأساس له، ودليل ذلك قوله: "ومن لا مال له لا عقل له، ومن لا عقل له فلا حياة له، ومن لا حياة له فلا لذة له، ومن لا لذة له فهو في قبيل المعدوم".<sup>(4)</sup>

فالمال في رأيه أساس كل شيء. وروى روبين أنه وصل الشاعر من ماله الخاص، وذكر أنّ الشاعر شتّع على ابن العميد.

(1) مثالب الوزيرين، ص 219.

(2) المصدر نفسه، ص 220.

(3) المصدر نفسه، ص 220.

(4) المصدر نفسه، ص 220.



وعند الحديث عن جملة أدب ابن العميد، يصفه التوحيدي بالجيّد، ويشهد له بحسن شعره في الغزل، لا يتسع المقام لذكره.

يذكر التوحيدي أنه سأل أبا السلم نجبة بن علي عن الوزيرين:

"ابن عبّاد أحبّ إليك أم ابن العميد؟"<sup>(1)</sup> فكان جوابه أنه لا يحب أحداً منهما، فقال: "ما فيهما حبيب".<sup>(2)</sup> وأخذ يعرض السبب، وما يعيننا ما ذكره عن ابن العميد، فهو وصفه بقلة العقل، والتفلسف، والجمود، والبخل، وأنه لا يُرجى منه شيء.

ويستمر التوحيدي في ذكر الصفات القبيحة لابن العميد، فيذكر قصّته مع حمد بن محمد أبي الفرج الكاتب، الذي كان مكيّناً عند ركن الدولة، وكان معه ابن العميد، ولكنه لم يكن يعطي أبا الفرج حقّه، بل كان دائم النقص من شأنه. وتُذكر معاتبة شعرية على لسان أبي الفرج نذكر منها بعض الأبيات:

مألك موفورٌ فما بأله      أكسبك النّيه على المُعَدِم

ويميضي قائلاً:

وقد وُلّينا وعزّلنا كما      أنت فلم تصعُر ولم تعظّم

تكافأت أحوالنا كلّها      فصل على الإنصاف أو فاحرم<sup>(3)</sup>

ويرى الباحث أن التوحيدي يذكر بين الفينة والأخرى شيئاً من جيّد الأستاذ الرئيس. فروى التوحيدي أن ابن العميد كان ذوّاقاً للشعر، وخصوصاً الغزل منه، ويشير إلى أنه كان ينقد بعضه، ويستحسن الآخر.

ومن الشيء الجيّد المذكور في حقّه، حين تحدث عن مواضع الثناء والهجاء، فأقرّ له بأنه من أعلام العصر، وعلى تعبيره أن ليس حامل الذكر، فهو وصاحبه عُرتين من عُرر الزمان.

(1) مثالب الوزيرين، ص 257.

(2) المصدر نفسه، ص 257.

(3) المصدر نفسه ص 278.

وهو يؤكد له بالسيادة والطاعة، فيقول: "وما فيهما إلا من هو عُزّة زمانه، وتاريخ دهره، لنباهته، وصيته، وطول أيامه، وامتداد دولته، ومواتاة مراده، وطاعة الناس له، وتوجّه الأطماع إليه".<sup>(1)</sup>

والحديث هنا عن الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد.

ويذكر أيضاً في أحسن ما يذكره عن الوزير ابن العميد، تشبيهه له بالشمس، حين تكلم عنه قائلاً: "ولولا أن هذين الرجلين - أعني ابن عباد وابن العميد - كانا كبيرين زمانهما، وإليهما انتهت الأمور، وعليهما طلعت شمس الفضل".<sup>(2)</sup>

ويؤكد أنه لولا المكانة الكبيرة التي يتمتع بها الوزيران، لما أولاهما اهتماماً ودراسة. فقال: "لكن لا أتسكع في حديثهما هذا التسكع، ولا أنحي عليهما بهذا الحد".<sup>(3)</sup>

وكأنه يبزر ما ذكره من نقص على الوزير سببه ادّعاء الوزير الكمال، فيقول: "ولكنّ النقص ممن يدّعي الكمال أشنع".<sup>(4)</sup>

ولعلّ هذا مسوّغاً يسوّغ به لنفسه استطراده بالذم في شخصيته.

ويؤكد هنا مرة أخرى، أن ليس للوزيرين ثالث في الكتابة للجبل والديلم، فيقول: "ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثاً من جميع من كتب للجبل والديلم إلى وقتك هذا كالمؤرّخ في الكتاب لم تجد".<sup>(5)</sup>

وبعد الانتهاء من الحديث عن رأي التوحيدي في الأستاذ الرئيس، ينتقل الباحث لعرض رأي مسكويه في ابن العميد.

(1) مثالب الوزيرين، ص 314.

(2) المصدر نفسه، ص 350.

(3) المصدر نفسه، ص 350.

(4) المصدر نفسه، ص 350.

(5) المصدر نفسه، ص 350.

## ثالثاً: مسكويه:

ذكر مسكويه عن ابن العميد أنه وصف الديلم بصفات عدة، إذ وصفهم بصفات تتراوح ما بين المدح والذم وصعوبة المعشر. إذ أورد قائلاً: "وقد سمعته في كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم في الحسد والجشع"<sup>(1)</sup>.

ويمضي ويؤكد أنّ استرضاء الديلم ليس بالأمر السهل، فمن يُولى فيهم يجب أن يبتعد عن التكبر والحسد والزينة والتبطر، فقال: "وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة، وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم إلى التحاسد ولا يتكبر عليهم"<sup>(2)</sup>.

ويبين الرئيس أن من يكون خلاف ذلك، يضع نفسه في مكان الحسد والطمع، بل وأكثر من ذلك، فيسعون سعياً حثيثاً لخلعه والتخلص منه ريثما تسمح الفرصة. فقال: "وأنّ من دعاهم واحتشد لهم، وحمل على حاله فوق طاقتهم، لم يمنعهم ذلك من حسد على نعمته، والسعي على إزالتها، وترقب أوقات العرّة في آمن ما يكون الإنسان على نفسه منهم فيفتكون به ذلك الوقت"<sup>(3)</sup>.

ولعلّ الرئيس يذكر هذه الصفات على مسامح ابنه أبي الفتح ليبعده عنها، ولكنّ أبا الفتح لم يكفّ عن سيرته.

وبعد هذا، فليس غريباً أن يستخلف ابن العميد أبا علي محمد بن أحمد المعروف بابن البيع في حضرة ركن الدولة بعد سفره، ولم يستخلف ابنه أبا الفتح، وذلك ناتج عن حكمة ومعرفة بأخلاق ولده، فإذا كان الرئيس وهو والده يغضب ويتألم لهذه السيرة، فما بال ركن الدولة!

وهناك موقف آخر أورده مسكويه يدل على غيظ وغضب الأستاذ الرئيس من ابنه أبي الفتح، وقصته التي جرت أحداثها إبان مسيرته لحرب حسنويه خير دليل على ذلك. فكان أبو الفتح يستميل الجنود والقوادم للعب واللهو، وهذا - كما أشار مسكويه - كان يجعل الأستاذ الرئيس يستثيط غضباً، إلى أن أدى به الأمر إلى أن دعا أكبر حجابيه، ووصّاه بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح، وأن يوصي

(1) تجارب الأمم: ج6، ص311.

(2) المصدر نفسه، ص311.

(3) المصدر نفسه، ص311.

النقباء بمنع الديلم من مسابرتة ومخالطته، ظاناً أن هذا سيكون رادعاً له، وللعسكر من بعده، وهذا ما زاد غيظ والده الذي لم يستطع التعبير عنه حفاظاً على مكانته ولكي لا يغري به الطامعين، وهو مقبلٌ على حرب، ويشير إلى أن ذلك كان سبباً في زيادة مرضه. وينقل عن ابن العميد قوله:

"ما يهلك آل العميد ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي"<sup>(1)</sup>.

-يعني ابنه- ويقول في مرضه:

"ما قتلني إلا جرع الغيظ التي تجرعتها منه"<sup>(2)</sup>.

ومن خلال هذه القصة الأنفة الذكر، يبين مسكويه العلاقة القائمة بين الأستاذ وابنه، ويبين لنا صفة من صفات الأستاذ الرئيس وهي كظم الغيظ.

ويمضي مسترسلاً في إظهار فضائله، فيقول أن له من الفضائل الشيء الكثير الذي لا يعد ولا يحصى، حتى أن عدوه وحاسده يشهدان له بهذا، وهو محط النظر والانبهار لكل أهل زمانه. فيقول: "كان هذا الرجل قد أدى من الفضائل والمحاسن ما بهر به أهل زمانه حتى أذعن له العدو وسلم الحسود"<sup>(3)</sup>.

وذكر مسكويه أنه اشتهر في مختلف أنواع العلوم، مثل علوم اللغة، والمعاني، والغريب، وكان متوسعاً في النحو والعروض، ومُهتدياً إلى الاشتقاق والاستعارات، وحافظاً لدواوين الشعر.

وبالغ في ذكر فضائله فشبهه بالشمس الساطعة التي لا تستطيع أحد إنكارها، والبحر الطويل الذي مهما تحدثت عنه لا تستطيع أن تفيه حقه.

ويستمر مسكويه في إيراد الأدلة التي تدعّم وجهة نظره، فأورد قصته مع أبي الحسن علي ابن القاسم، وهذا أيضاً شبيهه بالبحر الذي لا ينزف، ولا يُوبى ما عنده.

(1) تجارب الأمم، ج6، ص 362.

(2) المصدر نفسه، ص 313.

(3) المصدر نفسه، ص 314.

ومفاد هذه القصة أن أبا الحسن كان يروِّي ابنه أبا القاسم الشعر، وذلك حسب قوله أن الأستاذ الرئيس كان دائم الجلوس معه واستنشاده الأشعار. وكان في كل مرة يصحح له ويُصحّف ويعدّل، فأراد أبو الحسن أن يعلم ابنه قصائد غريبة، ظناً منه أن الرئيس يجهلها، فأنشده ثلاث قصائد غريبة من ديوان الكُميت، وذهب معه إلى مجلس الرئيس، فما كان من الرئيس إلا أن استدرك عليه في الأولى في أبيات ناقصة، وعدّل وصحّح في الثانية والثالثة. وهذا دليل غزير حفظه للشعر القديم والمعاصر له.

وكان مسكويه صاحباً لابن العميد، وحاضراً لمجالسه. واستمرت هذه الصحبة سبع سنين، فقال: "وأما ما شاهدته منذ صحبتي إياه - وكانت سبع سنين، لازمته فيه ليلاً ونهاراً".<sup>(1)</sup>

أشار مسكويه أنه كان ملازماً له لزوم الظل، فذكر عن غزارة حفظه أنه يردد أشعاراً لأناس مجهولين، وهو بذلك شديد العجب من حفظ الرئيس لشعر هؤلاء الرجال. فسألهم عن ذلك قائلاً: "أيها الأستاذ كيف تفرغ زمانك لحفظ شعر هؤلاء الرجال".<sup>(2)</sup>

فأجابه: "وكأنك تظن أنني أتكلف حفظ مثل هذا".<sup>(3)</sup>

ويعني بذلك أنه لا يجد عناءً ولا صعوبة في ذلك، فهو يحفظ الشعر بمجرد سماعه مرة واحدة، فيقول: "إنما ينحفظ لي إذا مرّ بسمعي مرة".<sup>(4)</sup>

وأقرّ له مسكويه بالصدق، فأشار إلى أنه كان ينشده أبيات الشعر الكثيرة، فيعيدها عليه، ويستحسن بعضها، ويسأله عنها، ويستنشده إياها.

ويشير مسكويه إلى أن الرئيس كان يُباهي أصدقاءه بحفظ الشعر، فكان يتحدثهم في حفظ ألف بيت في اليوم الواحد.

(1) تجارب الأمم: ج6، ص 315.

(2) المصدر نفسه، ص 315.

(3) المصدر نفسه، ص 316.

(4) المصدر نفسه، ص 316.

وأورد مسكويه أن الرئيس كانت له طريقة خاصة في حفظ الشعر، فهو يحفظ عشرين عشرين،  
وحيثما ينتهي منها لا يكلف نفسه إعادتها.<sup>(1)</sup>

ويمضي مسكويه في ذكر محاسن الأستاذ، فيشهد له بغزارة العلم والأدب، بشقيه نثره وشعره،  
فيشير إلى أنه كاتب بارع في فن الرسائل، وهذا ما اتضح لنا من خلال عرض رسائله وتحليلها. وأما  
الشعر، فلم تقرد المصادر له حظاً وافياً من الذكر والتعليق إلا القليل، والباحث يعجب من شهادة  
مسكويه له بجودة الشعر. وأما العلوم الدينية والقرآنية، فقد أشير إليها في الفصل الأول من هذا  
البحث، ومن المثير للاستغراب أن مسكويه مُصِرٌّ على معرفة ابن العميد العالية بعلوم الشرع والدين.  
ولم يجد الباحث مصدراً غير مسكويه يشير إلى هذا.

ويستمر مسكويه بالثناء وكيل عبارات المدح، حتى أنه لا يذكره إلا بعد أن يدعو له بالرحمة،  
ويستمر في ذكر الصفات الخُلقية العالية له في تعامله مع من يَرده من الأدباء، فأشار أنه يتميز بحسن  
الخلق، ونزاهة النفس، وخصوصاً مع الأدباء، مُشيراً إلى أن الأستاذ الرئيس كان يعطي المجال  
للأدباء، ويسمع منهم، ويستحسن ما يقولون، ويظهر معرفة الشيء القليل عن ذلك، فإذا جرت المناقشة  
والمناظرة بُهت من ناقشه، وشهد له بالعلمية العالية، وأوضح مسكويه أن كثيراً من المعتدين بنفسهم  
والمعجبين بها، خجلوا بها خجلاً شديداً في حضرة الرئيس، لأنه أظهر لهم بادئ الأمر المكانة العالية،  
وأجزل عليهم العطايا، ومن ثم فاض عليهم بحر علمه.<sup>(2)</sup>

وكسائر النقاد، شهد مسكويه له ببراعته في المنطق والفلسفة والإلهيات، وأشار إلى أنه لا أحد  
يجاربه في هذا المجال، فقال: "فما جسر أحد في زمانه أن يدّعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو  
قاصداً قصد العلم دون المذاكرة"<sup>(3)</sup> فإن من أتى العميد يأتيه متعلماً.

وروى مسكويه عن أبي الحسن العامري، الذي برع في الفلسفة، وقرأ كتب أرسطو طاليس،  
وتشبيخ فيها، أنه كان يعدُّ نفسه معلماً، فحينما جالس العميد، قرأ عليه عدة كتب مُستغلقة، وضحها له  
ويسرّها إليه.

(1) تجارب الأمم، ج6، ص 316.

(2) المصدر نفسه، ص 318.

(3) المصدر نفسه، ص 317.

وبالغ صاحب التجارب في عبارات المدح والثناء، إذ نراه عندما يتحدث عن الأستاذ الرئيس، يرفع من شأنه إلى أن يجعله في مقام صحابة رسول الله (ص)، فحينما يذكره يقرنه بعبارة -رضي الله عنه-، ومعلوم أن مثل هذه الأدعية إنما تفرن بصحابة رسول الله، من مثل أبي بكر وعمر وغيرهم.

وزاد على ذلك بأن جعله فريداً وواحداً في عصره، من الصعب أن يخلق له مثيل في كل مجال يخوضه. فروى عن قاصديه من جماعة الأدب أنهم قالوا فيه: "أنه لم ير مثله ولا ظن أنه يخلق".<sup>(1)</sup>

وأضاف إلى العلوم السابقة الذكر، أنه برع في العلوم الغربية، مثل "علوم الحيل التي يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة، والحركات الغربية، وجر الثقل، ومعرفة مراكز الأتقال، وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع، والحيل على الحصون، وحيل في الحروب مثل ذلك، واتخاذ أسلحة عجبية وسهام تنفذ أمداً بعيداً، وتؤثر آثاراً عظيمة، ومرائي تحرق على مسافة بعيدة جداً، ولطف كف لم يسمع بمثله، ومعرفة بدقائق علم التصاوير وتعاطٍ له بديع".<sup>(2)</sup>

هذا أبرز ما اشتهر به من العلوم الغربية، أوردها الباحث نصاً كما وردت في كتاب التجارب، حرصاً منه على أن لا يُنقص منها شيئاً، ودليل على تعظيم مسكويه لهذه الشخصية الأدبية. وأشارت الدراسات إلى براعته في فن الرسم، كما أشار مسكويه لذلك في حديثه عن قصة التفاحة، التي حَظَّ بظفره راسماً عليها صورة وجه، وذكرت الدراسات أن مثل هذا يحتاج إلى المهرة من الرسامين، وإلى آلات دقيقة، لعلها تستطيع أن تعد مثل هذا.

وكما برع في النواحي العلمية، برع في الناحية العسكرية. فنعتة مسكويه بصفة الأسد، فقال: "فإنما هو أسد في الشجاعة"<sup>(3)</sup> ولا يستطيع أحد أن يجاريه أو يشق غباره، فأشار بقوله: "لا يصطلى بناره ولا يدخل في غباره"<sup>(4)</sup>. وشهد له بتميزه في الرأي السديد وثبات الجأش والحنكة العسكرية. فقال

(1) تجارب الأمم، ج 6، ص 318.

(2) المصدر نفسه، ص 318.

(3) المصدر نفسه، ص 319.

(4) المصدر نفسه، ج 6، ص 319.

فيه: "مع ثبات جأش وحضور رأي وعلم بمواضع الفرص وبصر بسياسة العساكر والجيوش ومعرفة بمكايد الحروب"<sup>(1)</sup>.

وبيّن مسكويه أن الوزير كان مدبراً جيداً لأمر الملك في بلاد فارس، فأشار إلى رسالته إلى أبي محمد بن هندو -والتي سنعرضها لاحقاً- إلى اضطراب البلاد وكيفية إصلاح أمرها. وذكر مسكويه أن أمور ركن الدولة مع جنده وأفراد رعيته كانت متزعزعة غير مستقرة، فكان يخلو من الحشمة بينهم والإمرة عليهم، إلا بالتهاون والتسامح في أمور كثيرة، وإن لم تستحق المسامحة. وهذا يجعل الجند تتماذى وتتطاول على الأمير أكثر فأكثر. وكل هذا في سبيل تحقيق رغباتهم ومآربهم، فإن حُققت شهد له بالإمارة والإفلا.

ولما استوزر ابن العميد أصلح الحال في البلاد واختلف الأمر، فأصبح الوزير من بيته إلى ديواني ركن الدولة لا يرى إلا كُتّابه، ومن ثم يلتقي بركن الدولة، ويدور حوارهما في المهم من أمور دولتهم، على عادة الملوك والوزراء العظام. أضف إلى ذلك أن الوزير أعاد لركن الدولة الهيبة، وجعل الجند يحسبون له ألف حساب، وجعل له وقاراً في نفوس الناس.

إذاً فقد جعل مسكويه ابن العميد منقداً ومصالحاً لأمر دولة بني بويه، صغيرها وكبيرها.

#### الردود على آراء النقاد الثلاثة و تنفيذها:

ويمضي الباحث في تنفيذ الحجج والأقوال الواردة في الأستاذ الرئيس من مدح وذم. ولعلنا سنقف في تنفيذ حجج التوحيدي الوقفة الأكبر، مثلما كان له الحظ الأكبر في الحديث التفصيلي، ويقدم الباحث رسالة التوحيدي إلى ابن العميد يستعطفه فيها، معتبراً إياها خير ردّ وحجة على التوحيدي.

#### الردود على آراء الثعالبي والتوحيدي ومسكويه

##### رسالة التوحيدي لابن العميد يستعطفه

بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم هب لي من أمري رشداً، ووقفني لمرضاتك أبداً، ولا تجعل الحرمات علي رسداً، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب، وأجلب النفع ما تعلق بالمزيد، وخير المزيد ما بدا عن شكر، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص، وخير الإخلاص ما نشأ عن إتقان، وخير الإتقان ما صدر عن توفيق، لما رأيت شبابي هراً بالفقر، وفقرني غنياً بالقناعة، وقناعتي عجزاً عند التحصيل، عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه، وموضعي منه، فرأيت طرفه عني نابياً، وعنانه

(1) تجارب الأمم، ص 319.



عن رضاي مثنيًا، وجانبه في مرادي خشناً، وإنفاقي في أسبابه سيياً، والشامت بي على الحدثان متمادياً، طمعت في السكوت تجلداً، وانتحلت القناعة رياضة، وتألّفت شارداً حرصي متوقفاً، وطوبيت منشورٍ أمري متنزهاً، وجمعت شتيت رجائي سالياً، وادّرت الصبر مستمراً، ولبست العفاف محموداً، واتخذت الانقباض صناعةً، وقمت بالعلاء مجتهداً، هذا بعد أن تصفحت الناس، فوجدتهم عند كل قريبٍ وبعيدٍ أحد رجلين: رجلٌ إن نطق نطق عن غيظٍ ودمنة، وإن سكت سكت على ضغنٍ وإحنة، ورجلٌ إن بذل كدراً بامتتانه بذله، وإن منع حصن باختياله بخله، فلم يطل دهري في أثائه متبرماً بطول الغربية، وشظف العيش، وكتب الزمان، وعجف المال، وجفاء الأهل، وسوء الحال، وعادية العدو، وكسوف البال، متحرّفاً من الحنق على لثيم، لا أجد منصرفاً عنه، منقطعاً من الشوق إلى كريم، لا أجد سبيلاً إليه، حتى لاحت لي غرة الأستاذ، فقلت: حلّ بي الويل، وسال بي السيل، أين أنا عن ملك الدنيا، والفلك الدائر بالتعمى؟، أين أنا عن مشرق الخير، ومغرب الجميل؟، أين أنا عن بدر البدر، وسعد السعود؟، أين أنا عن يرى البخل كفراً صريحاً، ويرى الإفضال ديناً صحيحاً؟، أين أنا عن سماء لا تفتر عن الهطلان، وعن بحر لا يقذف إلا باللؤلؤ والمرجان؟، أين أنا عن فضاء لا يُشقُّ غباره، وعن حرّم لا يضام جواره؟، أين أنا عن منهل لا صدر لفرّاطه، ولا منع لورّاده؟، أين أنا عن ذوبٍ لا شوبٍ فيه، وعن صدّد لا حدّد دونه؟، بل، أين أنا عن أتى بنبوة الكرم، وإمامة الإفضال، وشريعة الجود، وخلافة البذل، وسياسة المجد، نسيمة مشيمة البوارق، ونفسه نفيسة الخلائق؟، أين أنا عن الباع الطويل، والأنف الأشم. والمشرب العذب، والطريق الأمم؟، لم لا أقصد بلاده؟، لم لا أفتدح زناده؟، لم لا أنتجع جنباه، وأرعى مراده؟، لم لا أسكن ربه، وأستدعي نفعه؟، لم لا أخطب جوده، وأعتصر عوده؟ لم لا أستمطر سحابه، وأستسقي ربابه؟، لم لا أستميح نيله، وأستسحب ذيله؟، لم لا أحجّ كعبته، وأستلم ركنه؟، لم لا أصلي إلى مقامه مؤثماً به؟، لم لا أسبح بثنائه متقدساً؟، لم لا أحكم في حالي؟

فتى صيغ من ماء البشاشة وجهه      فألفاظه جود وأنفاسه مجد

لم لا أقصد فتى بان للناس في كفه الجود عينان نضّاختان؟، لم لا أمتري معروف؟:

فتى لا يبالي أن يكون بجسمه      إذا نال خلّات الكرام شحوبُ

لم لا أمدح؟:

فتىً يشتري حسن الثناء بروحه ويعلم أعقاب الحديث تدومُ

نعم، لا أنتهي في تقرّيب فتى لو كان من الملائكة لكان من المقربين، ولو كان من الأنبياء لكان من المرسلين، ولو كان من الخلفاء لكان نعتة اللائذ بالله، أو المُصيف في الله، أو المعتضد بالله، أو المنتصب لله، أو الغاضب لله، أو الغالب بالله، أو المرضي لله، أو الكافي بالله، أو الطالب بحق الله، أو المحيي لدين الله، أيها المنتجع قرن كلئه، المتخبط ورق نعمته، ارع عريض البطان، متقيئاً بظله، وكل خَصماً ناعم البال، متعوذاً بعزه، وعش رخي اللبب معتصماً بحبله، ولذ بذاره آمن السرب، وامحض وُدّه بأنية القلب، وق نفسك من سطوته بحسن الحفاظ، وتخير له أطف المدح تفر منه بأيمن القِدح، ولا تحرم نفسك بقولك: إني غريب المثوى، نازح الدار، بعيد النسب، منسي المكان، فإنك قريب الدار بالأمل، داني النُّجج بالقصد، رحيب الساحة بالمنى، ملحوظ الحال بالحسد، مشهور الحديث بالدرك، واعلم علماً يلتحم باليقين، وتدرأ من الشك أنه معروف الفخر بالمفاخر، متأثر الأثر بالمأثر، قد أصبح واحد الأنام، تاريخ الأيام، أسد الغياض يوم الوغى، نور الرياض يوم الرضا، إن حُرِّك عند مكرمة حُرِّك غصناً تحت بارح، وإن دعي إلى اللقاء دعي ليثاً فوق سابح، وقل إذا أتيت به بلسان التحكم: أصلح أديمي فقد حلّم، وجدد شبابي فقد هرم، وأنطق لساني بمدحك فقد حصر، وافتح بصري بنعمتك فقد سدر، واتل سورة الإخلاص في اصطناعي فقد سردت صحائف النجح عند انتجاعي، وقل: رش عظمي فقد برأه الزمان، واكس جلدي فقد أعراه الحدثنان، وإياك أن تقول: يا مالك الدنيا جُد لي ببعض الدنيا فإنه يحرمك، ولكن قل: يا ملك الدنيا هب لي الدنيا، اللهم فأحي به بلادك، وأنعش برحمته عبادك، وبلغه مرضاتك، وأسكنه فردوسك، وأدم له العز النامي، والكعب العالي، والمجد التليد، والجَد السعيد، والحق الموروث، والخير المبتوث، والولي المنصور، والشانئ المبتور، والدعوة الشاملة، والسجية الفاضلة، والسرب المحروس، والربع المأنوس، والجناب الخصيب، والعدو الحريب، والمنهل القريب، واجعل أولياءه باذلين لطاعته، ناصرين لأعزته، ذابّين عن حرمة، مرفوفين على حوَّائه.

أيها الشمس المضيئة بالكرم، والقمر المنير بالجمال، والنجم الثاقب بالعلم، والكوكب الوقاد بالجد، والبحر الفيّاض بالمواهب، قد سقط العشاء بعبدك على سرحك، فأقره من نعمتك بما يضاهاي قدرك، وزوج هيئته تربيها من الغنى.

وبعد الاطلاع على هذه الرسالة، نرى التوحيدي يباليغ في تديبها، فيعتني بمقدّماتها عناية كبيرة، ومن ثمّ يصف سوء حاله وتغيّر الزمان عليه.

والناظر في حشايها هذه الرسالة، تمتلئ نفسه حيرة من التوحيدي، هذا الشخص الذي شتّع على ابن العميد أشدّ التشنيع، ونراه حين يستعطفه يكيل عليه عبارات المدح والثناء، بلا قيد ولا حساب، فيصفه بملك الدنيا، والفلك الدائر بالنعمة، ويزيد في ذلك حين يضيف عليه صفة الجمال، فيقول: "أين أنا عن بدر البدر، وسعد السعود"<sup>(1)</sup>. ويجعله صاحب فضل كبير، بل إنّ الفضل مذهب وطريقة يتبعها الأستاذ. فبالغ في ذلك حتى جعل ابن العميد دينه الفضل، وكفوه البخل، وقد عرضنا في ثنايا هذا الفصل إلى مواقف أوردتها التوحيدي نفسه يؤكد فيها على بخله. فإلى ماذا يطمئن القارئ من أقوال هذا المزاجي الغريب الطبع؟

ولكنني أرى مسوّغاً أحاول من خلاله التسويغ لأقوال التوحيدي، وهو علاقة المصلحة، ففي الوقت الذي لم يكن له حاجة منه، شتّع عليه بالصفات الذميمة، ولا بد للشخص حين يستعطف أو يستجدي أن ينقب عن عبارات الثناء.

وإذا قبلنا بهذا التسويغ، نكون قد جزمنا بأنّ التوحيدي رجل مزاجي وغير موضوعي، ويحكم بأهوائه. والذي يدعوننا إلى هذا القول، شدة المدح، إذ يمدحه تارة بالبحر الذي يقذف اللؤلؤ، وتارة أرى يجعله إمام الفاضلين، غير ذلك كثير.

وزاد في مدحه عندما جعله يتّصف بصفات النبوة، بل رفعه إلى درجة الملائكة المقربين، فيقول: "نعم، لم لا أنتهي في تقويظ فتى لو كان من الملائكة لكان من المقربين، ولو كان من الأنبياء لكان من المرسلين".<sup>(2)</sup>

ونرى التوحيدي يختم رسالته بالدعاء إلى ابن العميد، ويكيل عليه صفات الخيل والجمال والبهاء.

وبعد هذا، فإننا نرى أنّ التوحيدي في هذه الرسالة كان من أشدّ المادحين لابن العميد.

(1) مثالب الوزيرين، ص 329.

(2) المصدر نفسه، ص 330.

وأرى بعدم التسليم المطلق في أقوال التوحيدي، فصفتها العامة هي الدّم والتلب، وأكد ياقوت هذا بقوله: "الذّمّ مثانه، والتلب دكانه".<sup>(1)</sup>

أورد ياقوت عن التوحيدي قصّته مع أبي بكر القومسي الفيلسوف سائلاً إياه: " لو قصدت ابن العميد وابن عبّاد، عسى تكون من جملة من ينفق عليهما وتخلّى لديهما" فأجاب: " معاناة الضر والبؤس أولى من مقاساة الجهّال والنتيوس، والصبر على الوخم الوبيل أولى من النظر إلى مُحياً كل ثقيل"<sup>(2)</sup> وهذا ليس بالغريب من أخبار التوحيدي وذكره للصاحب وابن العميد، ولكن نعيد ونكرر استغرابنا في موضع الرسالة، فرجلاً يورد قصة مفادها أنّ تجمل التعب والضّرر خير من الذهاب إلى الجهّال الذي نعتهم بالنتيوس، وأصحاب الوجه الثقيل، ومن ثم يستعطفه في مثل هذه الرسالة، هذا أمر عجيب.

### التوحيدي:

أشار مسكويه إلى أنّ التوحيدي كثير الحسد، ويتمنى لنفسه ما لا يتمناه لغيره، ودليل ذلك حديثه عن ابن العميد حينما أعطى ألف دينار لأحد الأشخاص. (توثيق من المثالب).

وفي معجم الأدباء، ذكر ياقوت أنّ التوحيدي كان يثق بنفسه إلى درجة الغرور<sup>(3)</sup> أما رأي زكي مبارك، فقد ذكر أن التوحيدي كان ثائراً على أهل الغنى وحاسداً لهم.<sup>(4)</sup>

وذكر عنه أنه مقهور من أحداث دهره، حاقد على الرؤساء المسعوديين، الذين لا ينال فيض ما لديهم بغير أسباب الخيسة والدناءة والإسفاف. وأشار إلى أنه ظاهر الطمع والجشع والحرص.<sup>(5)</sup>

(1) معجم الأدباء، ج 5، ص 335.

(2) المصدر نفسه، ص 335.

(3) معجم الأدباء، ج 5 ص 335-366.

(4) زكي مبارك، النثر الفني في القرن 4 هـ، ص 163-164.

(5) المصدر نفسه، ص 165.

وأورد مبارك أن للتوحيدي شخصيتين مختلفتين:

الشخصية العلمية الباحثة المتعمقة.

وشخصية الأديب التي تحدث عن نفسه وأشجانه، وعتبه على الناس وتبُّرمه بالحياة<sup>(1)</sup>.

وهذا يقودنا إلى أن التوحيدي كثير الشكوى، ودائم العتب على أهل زمانه.

مسكويه:

قال أبو حيان:

لماذا اتخذ ابن العميد مسكويه معه؟

كان يحتمل ذلك لبعض العزازة بظله، والتظاهر بجاهه<sup>(2)</sup>.

لم تُنشر الدراسات أن مسكويه كان كثير المدح، ولم تعلق على مدحه الكبير لابن العميد.

وربما يسوغ ذلك أن مسكويه كان قريباً منه، ويعمل خازناً لكتبه، ويرى فيه الشخصية المرموقة في الجاه والأدب.

وذكر التوحيدي عن مسكويه أنه يعد التقرب من الرئيس شيئاً من أنواع الرِّفعة<sup>(3)</sup>.

**الثعالبي:**

ونختم فصلنا من حيث بدأناه، إذ ننظر في عُجالة سريعة إلى الثعالبي وآرائه التي أوردها في الأستاذ الرئيس. والحقيقة أن آراء الثعالبي كانت أكثر موضوعية من غيره. إذ ركز على الناحية العلمية والمكانة الأدبية لابن العميد، فلم يغال في مدح، ولم يتجاوز في إساءة، فاتبع منهج الوسطية.

(1) مثالب الوزيرين، ص 167.

(2) المصدر نفسه، ص 183.

(3) المصدر نفسه، ص 175 - ص 185.

ومن الجدير ذكره، أنّ الدراسات لم تشكك لحظة في الثعالبي وما أورده، وجعلته عيناً من عيون الأخبار الذين أوردوا التراجم والنثر والشعر بمصادقية. قال فيه صاحب الذخيرة: "كان في وقته راعي تلعات العلم، وجامع أشنات النثر والنظم، رأس المؤلفين في زمانه، وإمام المصنفين بحكم قرانه، سار ذكره سير المثل، وضربت إليه آباط الإبل".

وللثعالبي مصنفات عديدة، كلها تكسبه شهرة وتجعله في المكانة العالية في الرواية والنقل، وتصبغ عليه صفة الصدق وعدم التشكيك.

ومع أن الثعالبي لم يعاصر ابن العميد كثيراً، لأن ابن العميد توفي والثعالبي لم يزل في العاشرة من عمره، إلا أنه بالتأكيد عاصر علمه وأدبه. الأمر الذي جعله ينظم فيه مثل هذه الآراء الموضوعية.

#### رابعاً: المتنبّي

بعد الحديث عن صورة ابن العميد عند الأدباء الذين فصلنا في ذكر أرائهم في ابن العميد وتفصيلها وتفنيدها، ارتأى الباحث أن يعرض صورة منزهة لابن العميد عند شخصية أدبية لا تقل في أهميتها عن شخص أستاذنا، ألا وهي شخصية أبي الطيب المتنبّي، إذ مدحه بقصيدتين، وأطلق عليه صفات لم تكن أطلقت عليه من قبل، وأما الأولى والتي مطلعها:

بادِ هواك صبرت أم لم تصبرا      وبكاك إن لم يجر دمك أو جرا<sup>(1)</sup>

فأشارت بعض الدراسات إلى أنها لم تكن في أصلها لابن العميد، وأورد البرقوقي في شرح ديوان المتنبّي رأياً للخطيب التبريزي، أشار فيه إلى أن القصيدة كانت لابن الفرات وزير كافور، فلم تتل منه العطاء والرضا الكثير، فلم ينثرها له، وذهب إلى أرجان وفيها أستاذنا أبو الفضل وزير ركن الدولة، فنشده إياها، والمعروف أن المتنبّي لم يقصد أحداً في المدح مع سيف الدولة إلا ابن العميد.

وسنمضي في عرض سريع للصفات التي أطلقها المتنبّي على ابن العميد.

(1) مثالب الوزيرين، ص 175 - ص 185.

منذ بداية القصيدة، يجعل المتنبي ممدوحه سواء أراد أم لم يرد صبر أم لم يصبر هوام ظاهر للمحبين بدلائلها وعلاماتها، وحتى البكاء الذي تبكيه يعرفه الناس ويشعرون به، سواء ظهر معك أم لم يظهر، وهذا دلالة على حب الجماهير لشخص الأستاذ الرئيس.

ويستمر المتنبي في مجموعة أبيات أخرى يتحدث عن النسيب والمديح لشخص الأستاذ الرئيس وكل ما يتعلق به، ومن ثم يتخلص من النسيب بأن الناس لا تريد عطاء الزمان بل تريد عطاء السيد الأستاذ ابن العميد، وبعد ذلك ينتقل للحديث عن الناقة التي يجعل ابن العميد سببا في شحذها وحثها على السير في الأسفار.

يقول المتنبي أنه أقسم على الناقة أن تذهب لأجل البحار جوهرًا، وهو يقصد بذلك ابن العميد

فقد قال: أمي أبا الفضل المبرأ ليتي لأيمن أجل بحر جوهرًا<sup>(1)</sup>

ويشير المتنبي إلى ضرورة الإبرار بيمينه في قصد هذا البحر، ويشير المتنبي إلى أنه سيحلي بالسوار وبالذهب كل من يشير بقدم ابن العميد أو بقربه منه، أو كل من قال "الله أكبر" حينما رؤية بلده، وهذا البيت احتج به التبريزي على أن القصيدة لابن الفرات فأورد:

صُعَّتْ السوار لأي كف بشرت بابين الفرات وأي عبد كبرا<sup>(2)</sup>

ومن جمال ما مدح به المتنبي ابن العميد أنه لحلاوة لفظه أصبحت ألفاظه أثمانًا تشتري بها القلوب وتأسرها فقال:

بأبي وأمي ناطق في لفظه ثمن تباع به القلوب وتشتري<sup>(3)</sup>

ويرمز المتنبي إلى حنكة وقوة ابن العميد وعدم جرأة أحد على مقاومته، إنه يجعل أبطال الأعداء مخنثين وفي هذا رمز القوة العالية فيقول:

(1) أبي الفتح عثمان بن جني، الفسر، 2004، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، حققه: رضا رجب، المجلد الثاني، دار الينابيع، ص 186.

(2) أبي الفتح عثمان بن جني، الفسر، 2004، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، حققه: رضا رجب، المجلد الثاني، دار الينابيع، ص 187.

(3) المصدر نفسه ص 187.

خنثى الفحول من الكماة بصبغها ما يلبسون من الحديد معصفرا (1)

وفي إشارة أخرى إلى عظم تأثير كلامه، أن كلامه أقوى من الجيش، فإذا ورد كتابه إلى جيش حيره وجعلهم لا يقدرّون على مقاومته أو الاستقصاء عليه فهو يقول:

ويبين فيما مس منه بنانه تيه المدل فلو مشى لتبخترا (2)

وفي رمز آخر للقوة، تشبيهه لابن العميد براكب الأسد الذي لا يجرؤ أحد على مقاومته، ويقول أن ابن العميد يمتلك القوة بأي طريقة يختارها للقتال سواء بالسيف أم بالقلم.

أنت الوحيد إذا ركبت طريقة فمن الرديف وقد ركبت غضنفرا (3)

وفي إشارة إلى حلاوة كلامه، شبه كلام الناس بالثمر قبل نضوجه، وأقوال ابن العميد بالزهر الناضج المنتفح، الذي ينشر نسيمه وعطره على الناس، فيستطيبونه ولا يملون منه مهما كرر.

قطف الرجال القول وقت نباته وقطفت انت القول لما نوروا

فهو المشبع بالمسامع ان مضى وهو المضاعف حسنه ان كررا (4)

ويبالغ المتنبّي في مدح ابن العميد حينما قال:

فدعاك حسدك الرئيس وامسكوا ودعاك خالفك الرئيس الاكبرا

خلفت صفاتك في العيون كلامه كالخط يملأ مسمعي من أبصرا (5)

(1) أبي الفتح عثمان بن جني، الفسر، 2004، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبّي، حققه: رضا رجب، المجلد الثاني، دار الينابيع، ص 188.

(2) المصدر نفسه، ص 189.

(3) المصدر نفسه، ص 189.

(4) المصدر نفسه، ص 189 – 190.

(5) أبي الفتح عثمان بن جني، الفسر، 2004، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبّي، حققه: رضا رجب، المجلد الثاني، دار الينابيع، ص 191.



فقد قال إن الحساد سموك ودعوك بالرئيس، وربك دعاك أكبر الرؤساء لما تحتويه شخصيتك من الصفات الحسنة والجليلة، ولما في كلامك من صفات تشبه في حسنها صفات كلام الله -تعالى-، ويرى الباحث أن في هذا مبالغة غير مستحبة؛ إذ لم ولن يستطيع احد في الماضي ولا الحاضر أن يقارب كلامه بكلام الله -سبحانه وتعالى-، وإن الناس عند الله متساوون، فلا يفضل احد على احد، ولم نسمع من خلال القرآن الكريم والسنة أن سبق وجاء على لسان الله -عز وجل- أن ميز بشرا غير الأنبياء، وفي ظني أن هذا لم يصل إليه ابن العميد.

ويبالغ المتنبّي في تصوراته؛ إذ يجعل الناقة هي التي فضلت الذهاب إلى شخص الممدوح ومكانه دوناً عن سائر النوق، وهذا عائد إلى أن هؤلاء القوم يوقدون النار من عنبر، ولعلو فضلهم؛ فإن المسك تبرك عليه الإبل فقد قال:

تركت دخان الرمث في اوطانها      طلبا لقوم يوقدون العنبراً

وتكرمت ركباتها عن مبرك      تقعان فيه وليس مسكا اذفرا (1)

وقد كانت الناقة تخضبت أرجلها بالدم أثناء مسيرها لابن العميد، وفي هذا دلالة على حب ناقة المتنبّي بشخص الأستاذ الرئيس، ويشير المتنبّي انه حين سمع ابن العميد فكأنما كتب بطليموس، وفي هذا دلالة على أن ابن العميد جمع الملوكية والبدوية والحضرية.

ويبالغ المتنبّي فيجعل ابن العميد رجلاً حينما تلقاه فكأنما لقيت كل الفاضلين وأصحاب المكانة العلمية الفاضلة، وكأنما الله بعثهم وجمعهم في شخصية ابن العميد، ويرى المتنبّي أنه نال فضلاً كبيراً حينما لقي أبا الفضل؛ لأنه اجتمع فيه مجموعة أشخاص

ولقيت كل الفاضلين كأنما      رد الإله نفوسهم والاعصرا (2)

(1) المصدر نفسه، ص 193.

(2) أبي الفتح عثمان بن جني، الفسر، 2004، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبّي، حققه: رضا رجب، المجلد الثاني، دار الينابيع، ص 198.

ويضيف المتنبي قائلاً :

نسقوا لنا نسق الحساب مقمدا وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرًا (1)

أي مضوا واحدا اثر الآخر كالحساب الذي يذكر تفاصيله، ثم يقال في آخره، فذلك الجميع كذا وكذا أي فلما جئت في آخرهم كنت كأنك جملة التفصيل الذي سلف بهم؛ لأنك جمعت فضائلهم ومحاسنهم.

ويؤكد المتنبي انه ليس هناك موضع للشك في فضل أبي الفضل، فالفضل واضح كوضوح الشمس في السماء، وفي نهاية القصيدة يشبه ابن العميد بالكوكب المنفرد في الجمال، وجميع الكواكب الأخرى عبارة عن رهط له أو تبعة إليه، وأعطاهما صفة العقلية لذلك سماها بالقوم.

هذه القصيدة من أفضل ما مدح به ابن العميد، على الرغم من كثرة المبالغات فيها في كيل عبارات الثناء والمدح، وكما أسلفنا ذكره اكتسبت هذه القصيدة أهمية كونها جاءت من شخصية لا تقل في مكانتها وعظمتها عن شخصية الممدوح. إذن في رأي الباحث المادح والممدوح متساويان في المكانة، أو على قدر من التقارب في الأهمية.

وسيعرض الباحث صورة ابن العميد عند المتنبي في قصيدة يهنيء فيها ابن العميد بعيد النوروز ومطلعها:

جاء نوروزنا وأنت مراده	وورت بالذي اراد زناده
هذه النظرة التي نالها منك	الى مثلها من الحول زاده
بينثي عنك اخر اليوم منه	ناظر أنت طرفه ورقاده (2)

(1) أبي الفتح عثمان بن جني، الفسر، 2004، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، حققه: رضا رجب، المجلد الثاني، دار الينابيع، ص 198.

(2) المصدر نفسه، ص 1109 - 1110.

ويشير في هذا المطلع ان العيد هو من يهنأ بابن العميد فكأنه أراد ان يقول بأن العيد جاء من اجله ويشبه العيد بالانسان الذي يتزود بالزاد ولكن هذا الانسان يكون زاده طويلا اذ ياخذ النظرة من ابن العميد ويحيا بحبه الى العام الذي يليه لانه لا يأتي في العام الا مرة وهو استفاد منك اكبر افادة وهي النوم

نحن في ارض فارس في سرور      ذا الصباح الذي يرى ميلاده

عظمته ممالك الفرس حتى      كل ايام عامه حساده (1)

ويشير الى عظمته فقد عظموه ممالك الفرس وحسده كل من حوله على ذلك

ما لبسنا فيه الاكاليل حتى      لبستها تلاعه ووهاده

عند من لا يقاس كسرى ابو سا      سان ملكا به ولا اولاده (2)

ويشير الى ازدهار الارض واخضرار المكان حتى عم السرور والبهجة الناس والارض عند من لا يقاس ملك كسرى وملوك العجم بملكه

عربي لسانه فلسفي      رأيه فارسية اعياده

كلما قال نائل أنا منه      ونظر سرف قال اخر ذا اقتصاده (3)

ويشير الى انه جمع بين العربية من حيث اللسان والحكمة والقول وأعياده فارسية كالنوروز والمهرجان ويشير المنتبي الى كرم عال في شخص ابن العميد فانه اذا اعطى عطاء كثيرا أعطى بعده اكثر منه حتى يقال: اقتصد في الاول ويشبهه بالسماء من حيث العلو وبالسيف من حيث القوة

(1) أبي الفتح عثمان بن جني، الفسر، 2004، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبّي، حققه: رضا رجب، المجلد

الثاني، دار الينابيع، ص 1111.

(3) المصدر نفسه، ص 1112 - 1114.

(3) المصدر نفسه، ص 1115.

قلدتني يمينه بحسام  
اعقبت منه واحدا اجداده<sup>(1)</sup>

يقسم الفارس المدجج ألا يسلم من شفرتيه الا بداده

جمع الدهر حده ويديه  
وثنائي فاستجمعت احاده<sup>(2)</sup>

ويسترسل المنتبى في مدح السيف في عدة ابيات وأشار في بعضها الى مدح صاحب السيف  
وكأنهما يكملان بعضهما البعض فقد جمعت الاحاد كلها مع بعضها حد هذا السيف ويدي الممدوح  
وثناؤه له يريد ان شعره في وصفه لا مثيل له فلا سيف كسيف ابن العميد ولا يد في الضرب كيد ابن  
العميد ولا ثناء كثنائه

وتقلدت شامة في نداه  
جلدها منفساته وعتاده<sup>(3)</sup>

والمدح لابن العميد وعطاياه لا يتوقف في هذه القصيدة فالمنتبى وان كان مستحسنا للسيف  
ومعجبا به الا انه جعل السيف شامة في جلده أي هو عبارة عن شيء من ضمن أشياء نفيسة أهداها له  
الاستاذ الرئيس

هل لعذري الى الهمام ابي الفضل  
قبول سواد عيني مداده<sup>(4)</sup>

ويذكر المنتبى انه على كثرة ما ذكر من مدح وثناء فانه يشعر بالتقصير فهو يعتذر عن هذا  
التقصير ويرجو من الرئيس أن يقبل عذره<sup>(5)</sup>.

وهو يبذل في مقابل ذلك أعلى ما عنده حتى لو كان مايبذله هو عينيه فيقول : سواد عيني مداده

انني اصيد البزاة ولكن  
أجل النجوم لا اصطاده<sup>(1)</sup>

(1) أبي الفتح عثمان بن جني، الفسر، 2004، شرح ابن جني الكبير على ديوان المنتبى، حققه: رضا رجب، المجلد

الثاني، دار الينابيع، ص 1116.

(2) المصدر نفسه، ص 1118.

(3) المصدر نفسه، ص 1118.

(4) المصدر نفسه، ص 1122.

(5) المصدر نفسه، ص 1123.

ويفتخر المتنبى بنفسه أنه بارع في الصيد لكنه لا يستطيع أن يصطاد ذلك النجم المقصود به ابن العميد أي أن كلامه على جودته لا يرقى لمستوى ذلك الممدوح

وفي ذلك رد على من انتقد المتنبى في تقصيره في مدح ابن العميد ومن المحتمل ان يكون الاستاذ الرئيس هو من صحف وانتقد هذه الابيات فيقدم له المتنبى تبريرا على تقصيره أنه لم يسبق له وأن يمدح شخصا بمستوى الاستاذ الرئيس ويؤكد على حزنه لتقصيره في ذلك ويطلب العفو والمعذرة من الممدوح وهو في ذلك يمدح أيضا اي يمدح عند طلب العذر فيبرر تقصيره لغرقه في بحر ابن العميد المليء بالصفات والخصال الحميدة فلذلك لم يستطع أن يذكرها كلها ومن أهم ما مدح به أنه تعلم منه حسن النظم وصحة المعنى وأنه تنبه بانتقاد شعره على ما كان غافلا عنه وفي هذا مدح عال اذ ان المتنبى على شاعريته يصف نفسه بتلميذ لابن العميد واخذ منه العلم ووصفه برجاحة العقل الذي رمز اليه بالفؤاد وفي ذلك اقتباس من القران وهذا كله على الرغم من أنه موجود في بلاد غير عربية لكنه نضج فيها وبرع فيها أكثر ممن وجد في لب البلاد العربية وان الباحث ليستغرب من هذا المدح الكبير من المتنبى على ما تمتع به من مكانة لدى الخلفاء في العراق ومصر فهو شبهه تارة بالاله في القصيدة الاولى وها هو في هذه القصيدة يشبهه بالانبياء الذين هدفهم الاصلاح ويكرر الباحث رأيه من أن هذه مبالغة كبيرة اذ لا يوجد من البشر حسب رأي الباحث من يستحق أن يصل الى درجة الكمال الالهي ولا الى مرتبة الانبياء لان الله خصهم بشيء لم يخص به سائر البشر وفي علم الباحث أن ابن العميد لم يخاطبه وحي ولم تشر سائر الدراسات الى هذا والتساؤل لماذا كل هذا الغلو في المدح فالنعم نظنها من الله ولا يتفرد بها شخص ويستثنى منها آخر ولا تجمع كلها عند شخص واحد يعطيها لما يشاء كما أشار المتنبى وختم المتنبى قصيدته بالدعاء لابن العميد بطول العمر ودوام الصحة ولكن ابن العميد لم يصل السبعين أو الثمانين كما أشار العكبري،<sup>(1)</sup>

فابن العميد لم يتجاوز الستين عاما هكذا اجمعت كتب التراجم ولكن ربما يتفق الباحث مع شارح الديوان في أنه دعا له أن يعيش اربعين سنة أخرى كالتى عاشها أي أنه كان في الأربعين من عمره.

(1) أبي الفتح عثمان بن جني، الفسر، 2004، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبى، حققه: رضا رجب، المجلد الثاني، دار الينابيع، ص 1123.

وقد جعل المتنبي أبيات هذه القصيدة كالمهار دلالة على تجانسها وجودة سبكها هذه مجموعة من الصفات التي استخلصها الباحث من خلال قراءته لقصيدتي المتنبي في ابن العميد وبعد هذا يستطيع الباحث القول بأن المتنبي كان معجبا شغوفا عاشقا متيما بشخص ابن العميد. ويجدر بالباحث ان ينوه الى ان المتنبي لم يقتصر شعره في ابن العميد على هاتين القصيدتين بل احتوى ديوانه قصائد اخرى فتحدث عن ابن العميدج وعن ابنه ابي الفتح وسيذكر الباحث على سبيل الاستشهاد فقط مطالع تلك القصائد.

اما الاولى فيصف فيها كتاب ابي الفتح ابن العميد والتي مطلعها

بكتب الانام كتاب ورد فدت يد كاتبه كل يد<sup>(1)</sup>

أما الثانية فيودع فيها ابن العميد والتي مطلعها:

نسيت وما انسى عتابا على الصد ولا خفرا زادت به حمرة الخد<sup>(3)</sup>

اما الثالثة التي قالها في مجلس ابن العميد وقد قدمت اليه مجمرة من اس و نرجس وقد أخفى فيها النار والند والتي مطلعها:

احب امرئ حبت الأنفس وأطيب ما شمه معطس<sup>(4)</sup>

هذا ما استطاع الباحث أن يبرزه عنه صورة ابن العميد لدى الادباء على اختلافهم شعراء كانوا ام نقادا فوجد الباحث بعد هذا ان الوسطية عند اصحاب الأستاذ الرئيس تكاد تتعدم فمن أحبه مدحه بشغف ومن كرهه لم يجعل في قلبه مكانا لبذرة حب تنبت ولكن الشيء الالهم ان الغالب الاعم شهد له بالعلمية وجودة النتاج الأدبي وهذه شهادة لها وزنها وخصوصا أن التوحيدي قد قال بها.

(1) ديوان أبو الطيب المتنبي، ص546، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(3) المصدر نفسه، ص 1136.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص 277.

## الفصل الثالث

نصوص مختارة ومحلاة من رسائل ابن العميد

## الفصل الثالث

### نصوص رسائل ابن العميد وتحليلها

سيعرض الباحث في هذا الفصل ما استطاع أن يصل إليه من رسائل ابن العميد، وتحليلها تحليل وافيا وإبراز مواطن الإبداع لدى الأستاذ الرئيس، ومن ثم سيقدم نظرة عامة للدراسة الأسلوبية ومراعاة تطبيقها وانسجامها مع الرسائل، وقد ارتأى الباحث أن يقدم هذه النصوص على ثلاثة محاور وهي: الرسائل الرسمية، الإخوانية والرسائل التأملية أو التي غرضها الفن للفن أو معالجة قضية ما دون أن توجه إلى شخص ما.

#### 1. الرسائل الرسمية

وهي ثمانية رسائل:

(أ). رسالة ابن العميد إلى صاحب بن عباد<sup>(1)</sup>

كان أبو الفضل بن العميد -في أكبر الظن- هو الذي رشح صاحب للكتابة لمؤيد الدولة، فقد كتب بذلك كتاباً يحث صاحب على قبول ما رشحه له، ويذكر ما دار حول اختياره، وكان صاحب يباهي بتلك الرقعة التي كتبها إليه أبو الفضل حين استكتبه لمؤيد الدولة، وقد جاء فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، مولاي، وان كان سيدياً، بَهْرَثْنَا نَفَاسَتُهُ، وابنَ صاحبٍ تقدمتُ علينا رياسَتُهُ"<sup>(2)</sup>، فإنه يَعُدُّني سيدياً ووالداً، كما أعدهُ ولداً واحداً، ومن حق ذلك أن يعضدَ رأيَ برأيه، ليزدادَ استحكاماً، وتظاهراً<sup>(3)</sup> عقداً وإبراماً... .

(1) صاحب بن عباد، هو إسماعيل بن أبي الحسن عباد بن عباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطلقاني، أخذ الأدب عن أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي. أبي العباس بن خليكان، 1978، وفيات الأعيان، تحقيق: احسان عباس، المجلد الأول، دار الصادر: بيروت، ص228.

(2) يشير إلى أبيه (عباد بن عباس) الذي كان وزيراً لركن الدول، وكان يلقب (بالأمين).

(3) أي نتعاون ونتضافر.



وحضرتُ اليومَ مجلسَ مولانا ركنَ الدين، ففاوضني ما جرى بينه وبينَ مولايَ طويلاً، ووصلَ به كلاماً بسيطاً، وأطلعني على أنَّ مولايَ لا يزيدُ بعدَ الاستقصاءِ والاستيفاءِ على التقصِّي والاستغناء، وألزمَ عبدهُ أن أكرهَ مولايَ إكراهاً في المسألة، وأجبرهُ إجباراً في الطلبة، علماً بأنه إن دافعَ المجلسَ المعمورَ طلباً للتحريز لم يردِّ وساطتي أخذاً بالتطول: وأقول بعد أن أقدم مقدمة: مولايَ غنيٌّ عن هذا العمل بتصونه وتصلفه وعزوفه، وبهمته عن التكثر بالمال وتحصيله..

لكنَّ العملَ فقيراً إلى كفايته، محتاجٌ إلى كفالتة. وما أقول: أن مرادي ما يقعدُ من حساب، وينشأ من كتاب، ويستظهرُ به من جمع وبذر، ومن عطاءٍ ومنع. فكلُّ ذلكَ وإن كانَ مقصوداً، وفي آلات الوزارة معدوداً، ففي كتابِ مولايَ من يفِي به ويستوفيه، ويوفِي عليه ما يسرُّ مساعيه. ولكنَّ وليَّ النعمة يريدُه لتهديبِ ولده، ومن هو وليَّ عهدِه من بعده، والمأمول ليومِه وغده.

أدامَ اللهُ أيامه، وبلغه فيه مرامه<sup>(1)</sup> ولا بدَّ، وإن كانَ الجوهرُ كريماً، والسنخ<sup>(2)</sup> قديماً، والمجدُّ صميماً، من ينوبُ منابَ من تعلمَ ما السياسة؟ وما الرياسة؟ وكيف تدبيرُ العامة والخاصة؟ وبماذا تعقدُ المهابة؟ ومن أين تجلبُ الأصالة والإصابة؟ وكيف ترتبُ المراتبُ ويعالجُ الخطبُ إذا ضاقت المذاهب؟ وتعصى الشهوة لتحرسَ الحشمة، وتهجرَ اللذة لتحفظَ الإمرة. ولا بد من محتشمٍ يقومُ في وجهِ صاحبه، فيردّه إذا بدرَ منه الرأيُّ المنقلب، ويراجعه إذا جمحَ به اللجاجُ المرتكب، ويعاوده إذا ملكه الغضبُ الملتهب. فلم يكن السببُ في أن فسدت ممالكُ جمّة وبلدانٌ عدة إلا أن خفضت أقدارُ الوزارة فانقبضت أطرافُ الإمارة، وليس يفسد على ما أرى بقية الأرض إلا إذا استعينَ بأذنانٍ على هذا الأمر..

فلا يبخلنَّ مولايَ على وليِّ نعمته بفضل معرفته، فمن هذه الدولة جرى ما فضّله، وفضّلَ الشيخَ الأمين<sup>(3)</sup> من قبله، وإن كان مسموعاً كلامي، وموثوقاً باهتمامي، فلا يقعنَّ انقباضٌ عني، وإعراضٌ عما سبق مني...

(1) يشير إلى مؤيد الدولة بن ركن الدولة.

(2) السنخ-بكسر السين - الأصل.

(3) يشير إلى أبي صاحب.

ومولاي محكمُ الإجابة إلى العمل فيما يقترحه، وغير مراجع فيما يشترطه. وهذا خطي به، وهو على وليّ النعمة حجة لا يبقى معها شبهة، وسأتبع هذه المخاطبة بالمشافهة، إما بحضوري لديه، أو بتجشمه إلى هذا العليل<sup>(1)</sup> الذي قد ألحّ النقرس<sup>(2)</sup> عليه<sup>(3)</sup>.

### التحليل:

"وكانَ الصاحبُ بنُ عبادٍ يحفظُ هذه النسخةَ ويرويها ويفتخر بها"<sup>(4)</sup>. والحقيقة أن هذه الوثيقة تلقي الضوء على كثير من محاسن الصاحب وأدابه، فهي تسجل فضل أبيه عباد في الوزارة والكتابة، فهو في نظر أبي الفضل صاحب تقدمت رياسته، وابن العميد يجعل من نفسه للصاحب أبا بعد أبيه، ويعترف له بالسيادة ثم يبرز حاجته في عمله إلى الصاحب ليعضد رأيه برأيه، وليزداد أمره استحكاماً. ثم إن هذه الوثيقة تسجل ما هو أكثر من ذلك، وهو أن ركن الدولة قد ألح على الصاحب أن يقبل هذه الوصاية على ابنه مؤيد الدولة، وأن الصاحب أصر على الاعتذار والاستغفاء وأنه تقدم إلى أبي الفضل ليُلح على الصاحب إلحاحاً، ويكرهه إكراهاً، ويجبره جبراً. وأن الدافع للصاحب إلى هذا التأبي و التمتع هو عزوفه عن الدنيا وتحززه من مفاتنتها، وأنه غني بنفسه فهو يصونها إلى درجة الصلف والكبرياء، غير طامع في مال، ولا متطلع إلى جاه. قد وعد أبو الفضل الصاحب بن عباد بأن له كل ما يقترح، ولن يرد له شرط مما يشترط، وذلك ما لا يخاطب به إلا السادة الموقرون الأباة.

ذلك شيء يبين عن علاقة الصاحب الوطيدة بأستاذه أبي الفضل (ابن العميد الكبير)، فماذا كانت تلك العلاقة بين الصاحب وبين ابنه (أبي الفتح) أو (ابن العميد الصغير)؟

أما ابن العميد الصغير (أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين بن محمد) الملقب بذي الكفائتين، الذي كان وزيراً لركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه بعد وفاة أبيه أبي الفضل، ثم وزيراً لابنه مؤيد الدولة البويهى بالري وأصفهان، وما إليهما من أعمال الدولة، فقد أدبه أبوه فأحسن تأديبه، وهذبه أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي فأحسن تهذيبه.

(1) يعني أبي الفضل بن العميد بالعليل نفسه.

(2) هو مرض في مفاصل الكعب وأصابع الرجلين.

(3) ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج6، ص221-224.

(4) المصدر نفسه، ص221-224.

## وكان كما يقول الثعالبي:

نجيباً ذكياً، لطيفاً سخياً، رفيع الهمّة، كامل المروءة، ظريف التفصيل والجملة، قد تأنق أبوه في تأديبه وتهذيبه، وجالس به أدباء عصره وفضلاء وقته، حتى تحرّج، وخرج حسن الترسل، متقدم القدم في النظم، أخذاً من محاسن الآداب بأوفر الحظ؛ ولما قام مقام أبيه قبل الاستكمال، وعلى مدى بعيد من الاكتهال، وجمع تدبير السيف والقلم لركن الدولة، لقب رسالته إلى الصاحب ابن عباد، الوزير الأديب والعالم.

لقد اطلعنا على علاقة الصاحب بالأستاذ الرئيس، وهو سمّي بالصاحب لصحبته إياه، وهو من تلاميذه- كما سبق وذكرنا-، وهو من المعجبين بأستاذه أشد الإعجاب، وجاءت هذه الرسالة كشهادة تقدير من معلم إلى تلميذه، أو كمكافأة من والد إلى ولده، ويفتخر الصاحب بهذه المكافأة؛ بل ويزيد من إعجابه أن يجعل ابن العميد نفسه أباً له بعد أبيه، مع ذكر فضائل أبيه في الرياسة، وعدم إغفالها. فهذا بحد ذاته يكون رفعة للصاحب، فيقول ابن العميد: "فإنه يعدني سيّداً ولداً، كما أعده ولداً واحداً"<sup>(1)</sup>. وربما جاء هذا القول من ابن العميد لتمنيه أن يكون ابنه أبو الفتح كذلك، ومعلوم أنه كان يكره صفات ابنه، فيقول: "ما يهلك آل العميد إلا هذا الصبي"<sup>(2)</sup>.

ويمضي ابن العميد في رفع مكانة الصاحب واستغفائه من المنصب ترفعاً وزهداً في الدنيا، وانشغالاً بتجهيز أمور الآخرة، إلا أنه يجعل من الضروري جداً أن يقبل الصاحب بهذا المنصب، فيقول: "لكن العمل فقير إلى كفايته، محتاج إلى كفالاته"<sup>(3)</sup>.

وكان ابن العميد وركن الدولة يستجديانه في قبول وصاية ابنه مؤيد الدولة، وهذا يعود إلى ما يتحلى به من صفات الدين والدنيا، والصفات اللازمة للوزارة والرياسة، ويتمنى ابن العميد منه القبول، لأنه صاحب علم لا ينبغي أن يبخل به على الناس، وأشار إلى أنه سيتابع طلبه هذا، إما بالذهاب إليه إن تمكن، وإما بحضوره هو -أي الصاحب- إليه، ويشير إلى أن مرضه قد يمنعه من الذهاب، فيأتي الصاحب إليه.

(1) بدوي طبانة، الصاحب بن عباد، ص 45؛ ابن العميد، خليل مردم، ص 91-93.

(2) المصدر نفسه، ص 55.

(3) المصدر نفسه، ص 45.

بعد أن عرضنا لمضمون هذه الرسالة وموضوعها، لا بد من الوقوف على أبرز سماتها الأسلوبية. فهذه الرسالة مليئة بالمحسنات البديعية، من طباق وجناس وسجع وغير ذلك. فنرى أن السجع هو السمة الغالبة لهذه الرسالة وأمثلة فيها كثيرة، فمنها: (كفايته كفالتة)، (حساب، كتاب)، (مقصود، معدوداً)، (ولده، بعده، عده)، (أيامه، مرامه)، (كريمًا، صميماً)، (المرتكب، الملتهب)، (الوزارة، الإمارة).

ونرى الجناس يكثر فيها، وأغلبه الجناس الناقص مثل: (سياسة، رياسة)، (كفايته، كفالتة)، (الاستغفاء، الاستيفاء)، (الأصالة، الإصابة). وكذلك لا تخلو هذه الرسالة من الطباق، إذ وجد فيها، لكن وجوده كان أقل من المحسنات الأخرى، ومن أمثلته: (جمع، بذر)، (عطاء، منع)، (العامّة، الخاصة).

والملاحظ في هذه الرسالة، غلبة الموسيقى والقافية على جملها، وهو بذلك متمثل بطريقة الجاحظ، ومما أدى إلى انسياب المعنى، التناسق بين الجمل، وهذا أدى إلى تناسق في المعنى، ولا يمكن إغفال امتياز هذه الرسالة بسهولة ألفاظها ووضوح معانيها.

من ابن العميد إلى خالد الرامهرمزي<sup>(1)</sup>:

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي محمد خالد الرامهرمزي القاضي: "وصل كتابك الذي وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك، وضروب يرك وتعهديك؛ فارتحت لكل ما أوليت، وابتهجت بجميع ما أهديت، وأضفت إحسانك في كل فصل إلى نظائره التي وكلت بها ذكرى، ووقفت عليها شكري، وتاملت النظم فملكني العجب به، وبهرني التعجب منه<sup>(2)</sup>، وقد رمت أن أجري على العادة في تشبيهه بمستحسن من زهر جني وحلّ وجلي، وشذور الفرائد، في نحور الخرائد"<sup>(3)</sup>.

(1) خالد الرامهرمزي هو الإمام الحافظ البارع أبو محمد الحسن ابن عبد الرحمن بن خالد الرامهرمزي، ولد في سنة 265هـ وتوفي سنة 360هـ، من أبرز شيوخه أبوه عبد الرحمن الرامهرمزي و أبو يعلي الموصلي، من مؤلفاته: أدب الناطق، الشيب والشباب.

(2) بهر الشيء فلاناً: أدهشه وحيره، بهرت فلانة النساء: فاقتهم حسناً.

(3) الخرائد: العذارى، الأبقار، الواحدة: خريدة.

وَالْعَذَارَى غَدَوْنَ فِي الْحُلِّ الْبَيْضِ وَقَدْ رُحِنَ فِي الْخُطُوطِ السُّودِ. (1)

فلم أره لشيء عدلاً، ولا أرضى ما عددته مثلاً؛ والله يزيدك من فضله ولا يخليك من إحسانه، ويلهمك من ير إخوانك ما تتم به صنيعك لديهم، ويُرب (2) معـه إحسانك إليهم". (3)

### التحليل

جاءت هذه الرسالة من ابن العميد إلى القاضي خالد الرامهرمي، كرسالة شكر، ورد على رسالة وردت منه إليه. فشكره فيها على مدحه إياه وعلى ذكر محاسنه ودعا له بالمزيد من التقدم والرفعة، وحسن المعاشرة من الإخوان والأصحاب، وتعد من رسميات ابن العميد. وقد تضمنت هذه الرسالة - رغم قصر طولها - أنواع الفنون البديعة من مجاز وغيره.

ولنقف هنا في عجالة سريعة لنخوض بحر المجاز، فنرى أن ابن العميد يبدأ رسالته بتشبيه الكتاب بالطير الذي له جناحان، فطار فوصل إليه، حاملاً بشارة من القاضي الرامهرمي. وشبه أيضاً الكلام الذي في الرسالة بالهدايا، فقال: "فابتهجت بكل ما أهديت"، وشبه النظم وحسنه بأفضل أنواع الزهر الجني النضير، وشبهه بالحلي التي تلبسها النساء، ولا سيما النفائس في أعناق العرائس ليلة الزفاف.

ولننظر لحظة إلى الجناس، لنجد منه أمثلة مثل: (الفرائد، الخرائد)، (ذكرى، شكري)، (العجب، التعجب). أما السجع و الموازنة بين الجمل فجاءوا واضحين في هذه الرسالة، وأشبه بالفواصل القرآنية، وهذا ينطبق على جلّ الرسائل الرسمية. ومن أمثلة السجع: (تفقدك، تعهدك)، (أوليت، أهديت)، (ذكرى، شكري)، (عدلاً، مثلاً)، (لديهم، إليهم)، ومثال الموازنة بين الجمل: (فارتحت لكل ما أوليت، وابتهجت بجميع ما أهديت)، (وكلت بها ذكرى، ووقفت عليها شكري).

(1) ابن الرومي، الديوان: 175/6. والأبيات من قصيدة طويلة يمدح بها إسماعيل بن بلبل وزير الموفق العباسي.

(2) يرب: يحفظ وينمي.

(3) الحصري القيرواني، زهرة الأدب وثمر الألباب، رسالة ابن العميد إلى ابن خالد الرامهرمي، ص160.

وقد أظهرت هذه الرسالة براعة عالية في استخدام الضمائر، التي تدل على الانتقال من المرسل إلى المرسل إليه، فبرع في المراوحة بين ضميري المتكلم والمخاطب، وسهولة الانتقال بينهما، ومن ذلك قوله: (ابتهجت) ثم ينتقل لاستخدام (أضفت)، (وصلت) ثم ينتقل لاستخدام (فارتحت)

بعد الاطلاع والتحليل على هذه الرسالة، نرى أن ابن العميد كان على علاقة جيدة بهذا القاضي، ونرى أنه يقصر في رسائله الرسمية ويتجنب الإطالة، وتميزت بسهولة ألفاظها، مما أدى إلى وضوح في المعنى، وكثرت فيها التشبيهات المجازية، مما أضفى عليها روعة وجمالاً، تجعل القارئ يفهم كل ما يقرأ في ثناياها دون الحاجة أو تكلف الرجوع إلى المعجم.

**من ابن العميد إلى ابن بلكا (لم يجد الباحث ترجمة لأخباره):**

### فصل من أولها

"منه كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنك تدل بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب الرعاية، ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غول وخيانة، وتتبعهما بأنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك، لا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك أقدم رجلاً لصدك، وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأثنى ثانياً لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض الأمور فيك، ضناً بالنعمة عندك، ومنافسة في الصنعة لديك، وتأميلاً لفيئتكَ وانصرافك، ورجاءً لمراجعتك وانعطافك، فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو. ويكدر الماء ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء، وكل غمرة إلى انجلاء. وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياً، فلا بدع أن تأتي من إحسانك. بما لا ترتقبه أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت، واخترت ما اخترت. فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت، وسوء ما آثرت. وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماثلة ما صلح، وعلى الاستيناء والمطاوله ما أمكن، طمعاً في إنباتك، وتحكماً لحسن الظن بك، فلست أعدم فيما أظاهاه من أذار، وأرادفه من إنذار، احتجاجاً عليك، واستدراجاً لك، فإن يشأ الله يرشدك، ويأخذ بك إلى حظك ويسدك، فإنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير. زعمت أنك في طرف من الطاعة، بعد أن كنت متوسطها، وإذا كنت كذلك فقد

عرفتَ حاليتها، وحلبتَ شطريها. فنشدتكَ الله لما صدقتَ عما سألتك. كيف وجدتَ مازلتَ عنه؟ وكيف تجدُ ما صرتَ إليه؟ ألم تكن من الأول في ظلِّ ظليل، ونسيمٍ عليل، وريحٍ بليل، وهواءٍ عذي<sup>(1)</sup> وماءٍ روي، ومهادٍ وطى، وكنٌّ كنين، ومكانٍ مكين، وحصنٍ حصين، يفيكَ المتالفَ ويؤمنكَ المخاوف. ويكنفكَ من نوائبِ الزمان، ويحفظكَ من طوارقِ الحدثن، عززتَ به بعدَ الذلة، وكثرتَ بعدَ القلة، وارتفعتَ بعدَ الضعة، وأيسرتَ بعدَ العسرة، وأثريتَ بعدَ المتربة، واتسعتَ بعدَ الضيقة الضعة، وأيسرتَ بعدَ العسرة، وأثريتَ بعدَ المتربة، واتسعتَ بعدَ الضيقة بالولايات، وخفقتَ فوقكَ الرايات، ووطئَ عقبكَ الرجال، وتعلقتَ بكِ الآمال، وصرتَ تكائرٌ ويكائرُ بكِ، وتشيرُ ويشارُ إليك، ويذكرُ على المنابر اسمك، وفي المحاضر ذكرك. ففيمَ الآن أنتَ من الأمر؟ وما العوضُ عما عددت، والخلفُ مما وصفت؟ وما استفتتَ حينَ أخرجتَ من الطاعة نفسك، ونفضتَ منها كفك، وغمستَ في خالفها يدك؟ وما الذي أظلكَ بعدَ انحسارِ ظلها عنك؟ أظلُّ ذو ثلاثِ شعب، لا ظليلٍ ولا يغني من اللهب؟

قل نعم! كذلك، فهو والله أكنفُ ظلالك في العاجلة، وأروحها في الآجلة، إن أقمتَ على المحايد والعنود، ووقفتَ على المشاققة والجحود. ومنها - تأمل حالك وقد بلغتَ هذا الفصلَ من كتابي، فستكرها، والمس جسديك، وانظر هل يحس؟ واجسس عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجدُ في عرضها قلبك؟ وهل حلى بصدرك أن تظفرَ بفوتٍ سريح، أو موتٍ مريح؟ ثم قس غائبَ أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوله".<sup>(2)</sup>

قال مؤلف هذا الكتاب:

"بلغني عن بلكا - وكان أدب أمثاله - أنه كان يقول: والله ما كانت لي حال عند قراءة هذا الفصل إلا كما أشار إليه الأستاذ الرئيس، ولقد ناب كتابه عن الكتائب في عرك أديمي واستصلاحي، وردني إلى طاعة صاحبه".<sup>(3)</sup>

(1) العذي: الخالص.

(2) الثعالي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، رسالة ابن العميد إلى ابن بلك، ص10.

(3) المصدر نفسه، ج3، ص 165.

## التحليل:

هذه رسالة من الرسائل الديوانية، وهي عبارة عن وثيقة صلح يعيد فيها ابن العميد ابن بلكا إلى طاعة ركن الدولة. وكان ابن العميد قد بلغ قمة إجادته في هذه الرسالة، فبدأها بمقدمة رائعة، سادها أسلوب الحوار، والطباق الذي أعطاهما القوة، فمثلاً قال: (بين طمع فيك، ويأس منك)، (ميل إليك، ميل عليك)، (تأميلاً لفيأتك وانصرافك)، (رجاء لمراجعتك وانعطافك).

واستخدم ابن العميد أيضاً الطباق حتى في المعنى، أي في الإيجاب والسلب، وقدّم الإيجاب على السلب، وهذا أسلوب راق يجعل المخاطب يميل إليه. فهو يقول: (بين طمع فيك) للإيجاب، (ويأس منك) للسلب.

وابن العميد معتمد في أسلوبه هذا على العلاقة الطيبة بين ابن بلكا وركن الدولة، فأخذ يذكره بالأيام الهائلة التي أمضيها معاً. وكل هذا أملاً منه في عودة ابن بلكا إلى سالف عهده، ويحذره من البقاء بعيداً، فهو كأنه يصور له مشهدين، مشهد الماضي، ومشهد الحاضر فيقول: "كيف وجدت مازلت عنه، وكيف تجد ما صرت إليه؟".

ويؤكد على المكانة الرفيعة التي حظي بها مع صاحبه ركن الدولة، والصيت الذائع الذي أخذه من مصاحبته له. وفي هذه اللحظة، يستفهم باستغراب عن سبب الخروج، ولكن يبقى الباب مفتوحاً للعودة، لا بل يعطي التبرير لابن بلكا في خروجه، فيقول:

"فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب، ويذهب العزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح".<sup>(1)</sup> وكان خروجه هذا ناتج عن حالة انفعالية، وهو معذورٌ فيها، وغير معاقب عليها فكان هذا كافياً لتحقيق الأمل المراد، وهو عودة ابن بلكا إلى طاعة ركن الدولة، فقد قال: "والله ما كانت لي حال عند قراءة هذا الفصل إلا كما أشار إليه الأستاذ الرئيس، ولقد ناب كتابه عن الكتاب في عرك أدمي واستصلاحي، وردّي إلى طاعة صاحبه".<sup>(2)</sup>

(1) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، رسالة ابن العميد إلى ابن بلكا، ج3، ص10.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص169.



هكذا نرى الكلام أقوى من السيوف إذا ما أحسن صاحبه استخدامه. فابن العميد أثار نفسية المخاطب، وحرّك مشاعره وأحاسيسه، وجعله يستخطئ نفسه.

أما من الناحية الفنية، فلا يستطيع أحد أن يضعف أسلوب ابن العميد القوي، فلاحظ كيف استخدم العبارات الموزونة، وكأنها في ميزان حقّ. فكانت عباراته متساوية في الطول والقصر، وحتى الوزن الصرفي، مثل: (إقبال وإعراض) على وزن إفعال، (سابق، سالف) على وزن فاعل، (استبقاء، استصلاح) على وزن استفعال، (انصراف، انعطاف) على وزن انفعال. وكما استخدم السجع الذي هو أساس في كل كتاباته، وكان مؤثراً من المؤثرات في نفسية القارئ، وكان هذا السجع أشبه بالفواصل القرآنية، كقوله: (ظل ظليل)، (نسيم عليل)، (وريح بليل)، (هواء عذى)، (ماء روى)، (ومهاد وطى). وهذا أعطاهم تناغماً في الصوت والموسيقى دون تكلف، بحيث جعلت من انسجام ألحانها، وترابط ألوانها، قطعة فنيّة رائعة.

ومما أعطى لكتابات ابن العميد قيمتها، معرفته الواسعة باللغة، فهو يعرف متى يستخدم الفعل الماضي أو المضارع، ونلاحظ أنه يبدأ بالحديث عن الواقع المعاش فيقول: "وأنا مترجّح بين طمع فيك"، ومن ثمّ ينتقل إلى الماضي، فيقول: "وتمت بسالف خدمة"، ويشير إلى المستقبل بطريقة رائعة، كمثل قوله: "وأنتي ثانية لاستباقك واستصلاحك". علاوة على معرفته وإجادته في استخدام حروف الجر التي جعل بينها طباقاً جميلاً، مثل: "طمع فيك، يأس منك، إقبال عليك، إعراض عنك".

والطباق ظاهرة سادت هذه الرسالة برُمَّتها، والذي أعطاهم الجمال الأكبر أيضاً، جعل الطباق بين فعلين أو اسمين، أو حتى حرفي جر، مما أضفى عليها جمالاً وانسياباً. واستخدم الجناس باعتباره محسناً بديعياً، والحقيقة أنه أبدع فيه، فاستخدم جناس الاشتقاق. ويظهر ذلك جلياً في الفقرة الخامسة من الرسالة، إذ قال: "وصرت تكاثر ويكاثر بك، وتشير ويشار إليك". وهذا النوع من المحسنات اللفظية.

ومن وجوه البديع الواردة في الرسالة، فقد شاع الترصيع، فمنه ما كان فيه توازن في الألفاظ مع توافق في الإعجاز، نحو (يعزب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب)، و(على المنابر اسمك، وفي المحاضر ذكرك) وهو محسن لفظي أيضاً.

ولو أردنا إيضاح مواضع البيان في هذه الرسالة، لوجدنا المجاز يطرز فقراتها، ففي عبارات من الفقرة الرابعة: (إنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها، وحلبت شطريها)، فابن العميد قد صوّر لنا الطاعة بصورة حيوان حلوب، وليكن البقرة، وكيف يكون الإنسان البعيد من حليبيها بعد أن كان غارقاً في كرمها وعطائها، وقد ذكره في هاتين الحالتين من الجوع والشبع، ثم ذكره كيف كان يحلب ضرعيها، إذ جعل للطاعة أذاء كما هي أذاء البقرة، واستعار البقرة للطاعة وحذفها ورمز إليها بشيء من لوازمها وهي الأثدية التي حلبها، وهذه هي القرينة عليها، مما أوهمنا في تصوير الطاعة بالبقرة التي اخترع لها صورة الأثدية التي تعطي الحليب، وحينئذ تكون لفظة (الأثدية) التي تحلب (استعارة تخيلية) لأن المستعار له وهو (حلب شطريها) أي أذائها، صورة تخيلية وهمية.

وفي الفقرة الخامسة، وردت عبارة (وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عنك؟) إذ جعل الكاتب للطاعة مظلة يستظل بها الآخرون، والحق بها ملاءة تتسع وتتحسر، فهذه الملاءة، وهذا الظل هما صورة وهمية تشبه نجاعة الطاعة، وما تمنحه للشخص المطيع من منافع ومكارم، وهذه استعارة مكنية تفيد التخيل. كما وردت الكناية في (ظل ظليل...)، للدلالة على العيش الحر الكريم المرفق، وكذلك عبارة: (نفضت منها كفاك، وغمست في خلفها يدك)، فجعل الطاعة أمراً محسوساً، ورفض كفه منها، كناية عن تركها، وإعلان العصيات الذي هو خلاف الطاعة ليجعل منه سائلاً يغمس فيه يده، وهذه كناية أيضاً.

نلاحظ بعد المضي في هذه الرسالة من القراءة والتحليل، أنّ ابن العميد تأثر بالجاحظ ولكنه لم يأخذ منه الاستطراد وعدم الترابط في المعنى، وجاءت هذه الرسالة بشهادة النقاد والأدباء من أجود ما كتب وذكر الثعالبي في ذلك رأياً مفاده قوله: "وقد أجمع أهل البصيرة في الترسل على أن رسالته التي كتبها إلى ابن بلكا ونداد خورشيد عند استعصائه على ركن الدولة غرّة كلامه، وواسطة عقده، وما ظنك بأجود كلام، لأبلغ إمام".<sup>(1)</sup>

(1) الثعالبي، بتيمة الدهر، ج3، ص 166.

## رسالة إلى قاضي أصفهان بالتبرؤ من ولده

"بسم الله الرحمن الرحيم: القاضي أطل الله بقاءه وأدام نعماءه، أحل محل من مواهب الله فيه، وعوائده عنده في الدين والدنيا، والعصمة والخير، والفضيلة وحسن التآني في كل فصيلة، وجميل اللفظ في جميع الحكومة، ولي في الشكوى إليه، ومبائته، وذم الزمان عنده، والاستعداد عليه لديه استراحة وتخفيفاً للثقل، وتفرجاً من حرج الصدر، وأنا المتمسك به تمسكي كان بالولد والعم، وأثق بأن نصيبي من شفقتك تام، ومن مشاركتك وافر، والله لا يعدمني، ويحفظني بمواصله النعم عنده إليه بقدرته. والكُلوم -أدام الله عز القاضي- ضروب، والثدوب فنون، وأعسرها براء، وأصعبها داء، وأعزها دواء، ما جرحته يد القريب، وجلبته أفعال الأهل، فإن ذلك يصل إلى حبة القلب، وصميم الفؤاد، وتصير قذى في إنسان العين، وشجى معترضاً في الحلق، وتتراكم على الأيام، وتتكاثر على الدهر، فيكون نكء القرح بالقرح أوجع، ومتى نفس الممنوء<sup>(1)</sup>، وشكى المملوء غيظاً وحنقاً اجتمع إليه من عشيرته وأسرته شيخ ضعيف، أو طفل صغير، أو امرأة باكية، أو عورة بادية، أو ذو قرابة فاستغفر هذا، واستصفح، وأسأل، وتشفع. ثم رويت أخباراً في قطيعة الرحم، وغدت آثاراً في صلة القربى، فضاق النفس، واشتد الحنق، وتجرع هذا المظلوم الغيظ، وصبر وأنف، واحتمل واحتسب، وعفا وغفر، والشر عنيد، والبلاء يزيد، والطبع أغلب، والعادة لا تنزع، والجاهل لا يقلع، فهل دواءً هذا إذا اتصل، وطال، وامتد، وتتابع، وزاد، وتضاعف، إلا الصريمة والإعراض، والقطيعة والانقباض، فدواءً ما لا تشتهي النفس تعجيل الفراق، وأنا - جعلني الله فداء القاضي - ذلك الملائن المغناط الذي قد عيل صبره، وضاع حلمه، وضاعت نفسه، وفرح قلبه، ونضجت كبده، وقلت حيلته، وعظمت بليته، وهذا الجاهل ابني، ما هو بابني من انتهى بي إلى هذه الشكوى، وقصدني بهذه البلوى، وعقني وخالفني، وبغى علي، وباغضني، وارتكب معي ما لا يحل، بعد أن ربيته صغيراً، وأعزته كبيراً، وأوليته جميلاً، وأبليتة جسيماً، وصننته شديداً، وحطته دهرًا طويلاً، وخضت دونه الأهوال، وقاسيت في حمايته الأغوال، أجمه وأتعب، وأقلده وأتعطل، وأعزه وأذل، وأغترب ليقيم، وأنعمه وأشقى، وأتحمل عنه ليرضى، فما يعرف لي حقاً ولا يتأتى، ولا يرضى ذماماً، ولا يهدي، ويتهياً متعرضاً مستخفاً بي، ولو أمنت ملال القاضي -أدام الله أيامه- لعددت مقابحه، وذكرت مساوئه، ووصفت ما يرتكبه من عظام هي متصلة به، وإلي منسوبه، وأنا أفرغ من يسيرها، وأجزع من

(1) الممنوء: صاحب الأمانة.

قليلها، ولا أحب أن أراها وأعانيها في جارٍ أو قريب، وقد زجرتُ ووعظتُ، وقلتُ وأرسلتُ، وكاتبْتُ وشافهتُ، وعايَنتُ وخاطبتُ، وسدّدتُ وهولّتُ، ورغبتُ وأوجعتُ، وضربتُ الأمثال، وذكرتُ السير، وخوفتُ وحذرتُ، فما انتفعتُ، وجرائرُهُ تغلظُ، ولا احتمالٌ معي، ولا بقيةٌ للإغضاء عندي، وغرضي في هذه المخاطبة، ومغزايَ من هذه الشكوى والمبائة، أن يشهدَ القاضي أنني بريءٌ منه، قاطعٌ له، عادلٌ عنه، غير راضٍ بقوله، ولا فعله، نازعٌ ما ألبسته من بنوة، مطرَحٌ له دُنياً وديناً، ليس مني ولا إلي، قد تبراتُ منه، وصرمتهُ، ووكلتُهُ إلى اختياره، ورفعتهُ عنه يدي، وأسلمتهُ إلى الله ليأخذه بحقي، ويقبلُ به دعائي، ولا يحفظُ عليه ما لم يحفظه علي. اللهم اسمع واشهد، وكن حسيبَ الظالم، واحكم بيني وبينه يا خير حاكم! . وهذه شهادة لي عند القاضي يحفظها، كما يحفظ إليه من حقوق عمله، فاني مطالبُهُ بها يوم يقومُ الأَشهاد، كفى بالله العلي شهيداً.

وهذه - أبقاك الله - رسالةٌ تدلُّ على قرحةٍ دامية، وعينٍ باكيةٍ هامية، ونفسٍ قد ولّهتُ عما حل بها، وإن غلاماً يُجوجُ أباه إلى مثل هذه البراءة والشكوى منه والتألم، لغلامٍ سوء، والله أكرمُ من أن يجبرهُ في الدنيا، وأن يسعدهُ في الآخرة، وكلُّ هذا دليلٌ على أنه عارٌ من الديانة، سليبُ المروءة، وقد رضي بظاهر حاله وإن لم تدم له، ولهي عن عاقبة أمره وإن لم ينجُ منه<sup>(1)</sup>.

### التحليل:

جاءت هذه الرسالة بمثابة شهادة براءة من ابن العميد لابنه، يتبرأ فيها منه ومن أفعاله الذميمة، ومعروف أن علاقة ابن العميد بابنه أبي الفتح كانت علاقة سُخطٍ وغيظ. فلم يكن ابنه مطيعاً له، لا بل كان في كثير من الأحيان سبباً في ابتعاد الناس وتأليبهم عليه. وجرى مثل هذا في المعارك والحروب، فكان يفضّ بالجيش أثناء المسير للمعركة، إلى مجالس اللهو والندمان.

وكان من سُخط أبيه عليه أن قال بما مفاده أنه لا يُهلك آل العميد إلا هذا الفتى. وبعد كل هذا، نرى أن صبر ابن العميد قد نفذ، وبركان غيظه قد انفجر على ولده، فما كان منه إلا أن أرسل رسالة إلى قاضي أصفهان، وهي الرسالة الأتفة الذكر يتبرأ فيها من ابنه.

(1) أبي حيان التوحّدي، كتاب مثالب الوزيرين، رسالة ابن العميد في التبرؤ من ولده، ص 232-235.

بدأ الرسالة بذكر الله والدعاء للقاضي، واستطرد في ذكر مصائب الدهر ونوائبه. وعبر عن أن أشد تلك النوائب هي التي تأتي من الأقارب. ومن ثم أعلن تبرؤه من ابنه مبيناً الأسباب التي دفعته إلى ذلك، ومن أهمها الجهل فقال: "فهذا ابني الجاهل"، وينتقل ويذكر السبب الثاني وهو العقوق والمباغضة، فقال: "عقني وخالفني، وبغى عليّ، وباغضني"، وبعد ذلك يشرح لنا سبباً ثالثاً وهو نكران ابنه للجميل على الرغم مما قدّمه له أبوه من تعب ونصب في تربيته. ويشير إلى أنه هكذا يكون مصير الابن العاق لوالديه. ويوضح ابن العميد بصورة غير مباشرة حقوق الولد على والده، إذ يذكر أنه أداها كلها، ومن تلك الحقوق: حسن التربية في الصغر، فيقول: "بعد أن ربّيته صغيراً، وأعزّزته كبيراً"<sup>(1)</sup>. وبعد ذلك فإن ابن العميد كان يفضل ابنه على نفسه كسائر الآباء. فيشير قائلاً: "أجمّه وأتعب" أي أريّحه وإن كان في ذلك تعب لي. وأقبل الذلة و الشقاء في سبيل عزه ونعمه، والغربة في سبيل استقراره، فيقول: "أعزه وأذل، وأغترب ليقيم، وأنعمه وأشقى". هذه هي حقوق الولد على والده، قد أداها ابن العميد كاملة -حسب رأيه- ولكن حقوق الوالد لم يؤدّها له ابنه أبو الفتح، بل كان يساعد على الإنقاص من هيئته والخروج على أمره.

ويذكر العميد أنه لم يشر إلى كل مساوئ ابنه وقبحها، لكي لا يطيل على القاضي وبيان ذلك قوله "ولو أمنتُ مَلالَ القاضي آدم الله أيامه لعددتُ مقابحه، وذكرت مساوئه".

ويبين ابن العميد للقاضي انه لم يتبرأ من ولده بسهولة، فقد استخدم جميع أساليب الوعظ والإرشاد والنصح لإصلاحه. فقال: "وقد زجرت ووعظت، وقلت وأرسلت، وكاتبنت وشافهت، وعابنت وخاطبت، وسددت وهولت، ورغبت وأوجعت، وضربت الأمثال، وذكرت السير، وخوّفت وحدّرت، فما انتفعت". فكل هذا لم ينفع في إصلاحه، إذ إن الفساد نفّس في نفسه (ابنه أبي الفتح). وهو يزداد قبحاً وسوءاً مع الأيام ومرورا مع الوقت، ويُشهد أبو الفضل القاضي على أن الصلة بابنه أبي الفتح انقطعت ولا رجعة فيها. هذا هو المغزى من الرسالة من الناحية المعنوية.

ولو نظرنا إلى فنيات هذه الرسالة، فسنجد فيها كثيراً مما يستحق ذكره. فنبدأ بالعاطفة السائدة في هذه الرسالة وهي عاطفة الأبوة والحزن، إذ أن ابن العميد حزين لما وصلت له الأمور بينه وبين ابنه.

(1) أوصله إلى مراتب العزة كبيراً.

وكعادته في رسائله، فالسجع لم يغيب عنها، ومنه: (بقائه، نعماءه)، (داءً، ودواءً)، (باكية، بادية)، (عتيد، يزيد)، (تنزع، يقلع)، (الإعراض، والانقباض)، (حلمه، نفسه)، (حيلته، بليته)، (الشكوى، البلوى)، (خالفي، باغضني)، (صغيراً، كبيراً)، (الأهوال، الأغوال). وظهر الطباق ظهوراً جلياً للعيان، فمنه: (داء، دواء)، (شيخ، طفل)، (قطيعة، صلة)، (قلت، عظمت)، (صغيراً، كبيراً)، (أجمه، اتعب)، (أقلده، اتعطل)، (أعزه، أذل)، (أغترب، يقيم)، (أنعمه، أشقى).

وكان هذا البروز لأهمية الطباق لأنها صورت مشهدين متقابلين من الأب وابنه. ونصيب الجنس لم يكن بالقليل. ولننظر إلى بعض أمثله: (فضيلة، فصيلة)، (الأهوال، الأغوال)، (أفزع، أجزع)، (باكية، بادية).

وظهرت في الرسالة بعض الصور الفنية التي تستحق أن تذكر، منها قوله:

"تجرع هذا المظلوم الغيظ" فشبه ابن العميد نفسه بالمرريض، وشبه غيظه من ابنه بالدواء المر الذي هو مكره على أخذه فتجرعه جرعة حتى أدمي قلبه من مرارته. كذلك قوله: "تازع من ألبسته من بنوة" فشبه البنوة بالثوب الذي ألبسه لابنه وهو الآن يريد أن يخلع هذا الثوب عنه بصفته مالكا له. أما في قوله: "ما جرحته يد القريب" فيشبه نفسه بشيء محسوس وهو يذكر الآلام النفسية أو القلبية بشيء يُجرح، وكان هذا الجرح شديداً، لأن الذي استل السيف وجرح هذه النفس هو القريب، والقريب هنا معنوية، إذ لم يقصد قريباً بعينه، بل جعل لهذا القريب المعنوي يداً وهي التي أوغلت في هذا الجرح.

وعبر ابن العميد عن مرارته وحزنه بترادفات كان لها تأثيرها البالغ في النفس. ومنها: (الكلوم، الندوب)، (ضروب، فنون)، (القلب، الفؤاد)، (تتراكم، تتكاثف)، (الأيام، الدهر)، (صبر، احتمال)، (عفا، غفر)، (الطبع، العادة)، (طال، امتد)، (صبره، حلمه)، (الصريمة، الإعراض).

وهكذا لمحنا الترادف بصوره الإبداعية، إذ إنه جاء في الأسماء تارة، وفي الأفعال تارة، وحتى في الجمل تارة ثالثة.

وكدأب ابن العميد، فقد خدم أسلوبه البديعي العالي مضمون رسالته وأضفى عليها جمالاً وانسياباً على القارئ، وجاءت معانيها واضحة ناتجة عن البراعة في انتقاء الألفاظ السهلة القريبة من

الأذن، وتمثل السجعات الأشبه بالفواصل القرآنية، فما كان من القاضي حين وصله كتابه، إلا أن استعذبه وردّ عليه بجواب فيما يلي نصّه.

### جواب القاضي على الرسالة

ثم أفادنا حمزة المصنف جواب القاضي للعميد وذلك أنه كتب: "بسم الله الرحمن الرحيم. وصل كتاب العميد أعزّ الله جلالتّه، ووفرّ عليه كرامته، وأدام له نعمته وحياطته، وأنس وصوله، وأوحش محصله، ويعزّ علي أن أقرأ كتابه بعد عهدِ دارس، ودهر متقادم منبئاً عن قرائح صدره، وجرائح فؤاده، وقد والله زاد عجبني من هذا الحديث كله، وشركته في جميعه، وسألتُ الله اللطيف فيئة هذا الغلام إلى حظه، ونظراً إلى قلبٍ قد أضرم فيه نارُ العقوق، وأفرج عن لوازم الحقوق، فإنه إذا وفقَ لذلك كان فيه صلاحُ معاشه الذي هو عاجلته وسلامة معاده الذي هو آجلته، هذا مع الذكر الجميل الذي ينشرُ له، وبركة دعاء شيخه إذا عادت عليه، وقد كتبتُ إلى الفتى -أكرمهُ الله- بما أن هُدي لرشده، ووفقَ لحظه، غبطاً واعتبط، وإن كثر منه اللجاجُ والمحكُ خبطاً واختبط، والله يفتحُ بصره، ويأخذ بيده فيعلم ما في البراءة من البنوة، والتعري من الأبوة من الهجنة الشنيعة، والفضيحة الفظيعة، ولم أفتح بالكتاب، وبما تصرفت فيه لوازغ العتاب، حتى كتبتُ إلى أبي الخريش وسألتُهُ إحضاره ومناظرته، واستخراج ما عنده مع التهجين الشديد، وشوب ذلك بالوعد والوعيد. وغالب ظني أن تلك القسوة تحولُ رقة، وتلك الفضاضة تعود لينا، ولو كنتُ في مقرّه، أو كان في صيقي لكان لي في هذه القصة جدٌّ وانكماشٌ يحمدي عليها العميد، ولكني منه بعيد، وأنا عائذ بالله، تقاعسَ وعظي عنه، ونبا نصحي دونه بعد التلطف والاجتهاد، فالأسى والأسف أعزُّ من أن يُرسلا وراءه، أو يُقاما إزاءه، والولدُ قد يموتُ باراً، ويفوتُ عاقاً، فليطلب قلبُ العميد عنه فائتاً، كما تسلو النفسُ عن العزيز مائتاً، ولعلَّ العتبَ يُسفرُ عنه بما يسر منه، فللزمان في قلبه غرائب، وأنا أسألُ الله أن لا يخليني من العميد عمدة، ولا يريني فيه ومنه سوءاً وغمة، ورأيه في مواصلي بكتبه المحملة برّة، وتفضله بمنابتي وتصريفي على تكاليفه متوقعٌ مشكور، وأنا عليه حامدٌ مشكور".<sup>(1)</sup>

(1) أبي حيان التوحيدي، كتاب مثالب الوزيرين، ص 230-236.

هكذا رأينا أن هذا النص جاء مضمونه حول تصبير القاضي لابن العميد على أفعال ابنه والتخفيف عليه من عظيم بليته ، وحثه على معاودة المحاولة مرة أخرى، لعلّ وعسى تكون الإجابة. وطلب من أبي الفضل الاستمرار في مراسلته على مدى الأيام.

وخلاصة القول أن ابن العميد مبدع في رسمياته، كما هو مبدع في إخوانياته.

### رسالة تهنئة إلى عضد الدولة<sup>(1)</sup>

كتب إلى عضد الدولة وقد ولد له ابنان توأمان: "وصل كتاب الأمير بالبشرى التي أبت النعمة بها أن تقع مفردة، وامتعت العارفة فيها أن تسنح موحدة، حتى تيسرت منحان في وطن، وانتظمت موهبتان في قرن، وطلع من النجيين أبي القاسم وأبي كالجار -أدام الله عزهما- طالعا ملك، ونجما سعد، وشهابا عز، وكوكبا مجد، فتأهلت بهما رباغ المحاسن، ووطئت لهما أكناف المكارم، واستشرقت إليهما صدور الأسرة والمنابر. وفهمته وشكرت الله تعالى شكر من نادى الآمال فأجابته مكتبة، ودعا الأمانى فجاءته مصحبة، وحمدته حمداً مكافئاً جسيم ما أتاح وعظيم ما أفاد.

واكتفني من السرور ما فسح مناهج الغبطة، وسهل موارد البهجة، وأشعت ما ورد اشاعة شرحت صدور الأولياء بمسارها، وأزعجت قلوب الأعداء عن مقارها، وسألت الله تمام ما آذن به الأميران السيدان من سعادة لا يهتدي إليها الاختيار علواً، ولا ترتقي إليها الأفكار سمواً، وسلطان تضيق البحار عن اتساعه، وتنخفض الأفلاك عن ارتفاعه، ويبلغها أفضل ما تقسمه السعود، وتعلو به الجدود حتى يستغرقا مع السابقين إخوتهما مساعي الفضل، ويشيدا قواعد الفخر، ويرجما صروف الدهر، ويضبطا أطراف الأرض، وهو تعالى قريب مجيب".<sup>(2)</sup>

وكتب أيضاً إلى عضد الدولة بهذا المعنى:

"أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة دام عزه وتأييده وعلوه وتمهيدته، وبسطته وتوطيده، وظاهر له من كل خير مزيد، وهناك ما احتضاه به على قرب البلاد، من توافر الاعداد، وتكثر

(1) عضد الدولة من أمراء بن بويه، ذاع صيته وانتشر في القرن الرابع هجري، وخلع عليه الخليفة الطائع العباسي ما لم يخلعه على غيره، وأمر أن يخطب له على منابر بغداد .

(2) خليل مردم بك، ابن العميد، ص 87 .



الأمداد، وتثمر الأولاد، وأراه من النجابة في البنين والأسباط، ما أراه من الكرم في الآباء والأجداد، ولا أخلى عينه من قرّة، ونفسه من مسرة، ومتجدد نعمة، ومستأنف مكرمة، وزيادة في عدده، وفسح في أمده، حتى يبلغ غاية مهله، ويستغرق نهاية أمله، ويستوفي ما بعد حسن ظنه، وعرفه الله السعادة فيما بشر عبده من طلوع بدرين هما انبعثا من نوره، واستنارا من دوره، وحفا بسريره، وجعل وفودهما متلائمين، وورودهما توأمين، بشيرين بتظاهر النعم وتوافر القسم، ومؤذنين بترادف بنين يجمعهم منخرق الفضاء، ويشرق بنورهم أفق العلا، وينتهي بهم أمدُ النماء إلى غاية تفوت غاية الإحصاء ولا زالت السبلُ عامرةً والمناهلُ غامرة، بصفائح صادرهم بالبشر وأملهم بالنيل القاصد<sup>(1)</sup>.

### التحليل:

هاتان رسالتان على لسان ابن العميد إلى عضد الدولة، يهنئه فيها بقدم ولدين توأمين له، وينثر فيها عبارات المدح والثناء للتوأمين ولأبيهما. فمغزى الرسالتين واحد، وإن اختلفت بشكل بسيط في الصياغة والأسلوب. فنراه في الأولى يدخل بموضوع الرسالة مباشرة، وهو التهئة بقدم التوأمين فيقول: (وصل كتاب الأمير بالبشرى التي أبت النعمة بها أن تقع مفردة، وامتنعت العارفة فيها أن تسنح موحدة، حتى تيسرت منحتان في وطن).

وهو بهذا يهنئ عضد الدولة بأسلوب رائع، فيقول: (أن النعمة أبت أن تكون مفردة)، أي أن النعمة لم ترض أن تحل بعضد الدولة نعمة واحدة، بل أرادت أن تكون لها شقيقة تشاركها في إحلال الفرح والسعادة على الكون. أما في الثانية، فنراه يمهد للموضوع بمقدمة معتادة في الرسائل، فيدعو للأمير ويمدحه ويذكر بعض خصاله الحميدة، وبعد هذا ينتقل للحديث عن الموضوع الأساسي وهو التهئة بقدم التوأمين. وقد أطل في مدح عضد الدولة ووصفه كثيراً، فقال: (أطل الله بقاء الأمير. ويستوفي ما بعد حسن ظنه وعرفه، الله السعادة فيما بشر عبده من طلوع بدرين هما انبعثا من نوره، واستنارا من دوره).

(1) خليل مردم بك، ابن العميد، ص 87-89.

ويرى الباحث أن الأولى كانت أقوى في تشبيهاتها ومجازاتها، وتظهر شعور الفرح من الكاتب بشكل أكبر منه في الثانية. ولننظر في مقارنة بسيطة في مجازة إذ أطلق العنان له، وكأنه هو الأب، والتوأمين هما ولداه. فشبه ورودهما بالنعمة التي تحل على الوطن وعلى سائر أرجائه، وشبه جمالهما وضيءهما بالشهب والنجوم التي تشع نوراً، يضيء كل ما حوله، وشبه فرحة القوم بقدمهما بمستغيث ناجي الله فأغاثه فيقول: (واستشرقت إليهما صدور الأسرة والمناير، وفهمته وشكرت الله تعالى إلى شكر من نادى الآمال فأجابته مكتبة، ودعا الأمانى فجاءته مصحبة).

أو كفلاحين حين انتظروا المطر ليتم الحصاد، فجاء هذا تعبيراً عن فرح ما بعده تعبير، فشكروا الله وحمدوه على ذلك. وأظهر ابن العميد في نفسه حب أن يكون له مثل ذلك بصورة غير مباشرة حينما قال: (واكتفني من السرور ما فسح مناهج الغبطة). والغبطة ليست حسداً، أي أنه لا يتمنى زوال النعمة عن عضد الدولة، بل يتمنى من الله أن يهبه مثلما وهبه. وربما تكون في ذلك دلالة خفية وهي أنه يعتبر نفسه دون ذرية، لكرأته خصال ابنه أبي الفتح. وبعد ذلك يتمنى للتوأمين أن يسيرا على نهج آبائهم وأجدادهم من بني بويه ليكونوا خير خلفٍ لخير سلف.

فنرى من هذه الرسالة أن جل الاهتمام منصب على التوأمين وقدمهما، والمباركة والتبشير بهما، والتمني لهما بالتقدم والرفعة في ظل والدهما.

أما الرسالة الثانية، فكما أسلفنا، اهتم ابن العميد بالثناء على عضد الدولة ومكانته، وهذا أمر قد يبعد القارئ عن جو المناسبة. وحتى المجاز والتشبيهات القوية التي استخدمها في الأولى فاقت بكثير على ما جاء في الثانية. وإن كان قد استخدم بعضها في الرسالتين، كتشبيه التوأمين بالبدر، ولكن البدر في الثانية، كان الأصل فيه عضد الدولة، حين قال: (طلوع بدرين هما انبعثا من نوره). والأولى أقوى، إذ إن البدرين يضيئان لكافة البشر ولكنهما في الثانية يستمدان نورهما من والدهما عضد الدولة وينيران عليه. وفي الأولى، جعل التوأمين نعمة للوطن أما في الثانية، فهما سند لأبيهما ومعاونان له في تدبير الملك.

وللحديث عن المحسنات الأخرى شأن آخر، فنرى الرسالة الثانية وكأنها شعر موزون في سجعه ومن ذلك: (تمهيد، توطيده)، (البلاد، الأعداء)، (الإمداد، الأولاد)، (قرّة، مسرّة)، (نعمة،

مكرمة)، (عدوه، أمده)، (أهله، أمله)، (نوره، دوره)، (متلائمين، توأمين)، (الفضاء، العلا)، (النماء، الأحصاء).

ولا يظن القارئ أن المعنى هو خلو الرسالة الأولى منه، ولكن جاء في الثانية أكثر، فمن أمثلته في الأولى : (مفردة، موحدة)، (علواً، سمواً)، (اتساعه، ارتفاعه)، (السعود، الجود)، (الفخر، الدهر)، (الغبطة، البهجة)، (مكتبة، مصحبة)، (وطن، قرن)، (مسارها، مقارها).

وأما الطباق، فلم يرد له نصيب وافر، لأن الحديث لم يأت عن مقارنة بين حال وحال، بل كان جل الحديث عن الفرحة والبهجة بقدوم التوأمين، وهو حال واحد، ولم يقارن هذا الحال مع ما قبله أو مع ما بعده، وينطبق ذلك على الرسالتين.

ولم يكن الجنس أفضل بكثير من الطباق، إذ لا يتجاوز في الرسالتين عدد أصابع اليد الواحدة، وهذا من الغريب النادر في رسائل ابن العميد. ولم نجد سوى: (مسارها ومقارها) من الرسالة الأولى و(الأعداد، الإمداد)، (نوره، دوره)، (عامرة، غامرة) من الرسالة الثانية.

ولن نكرر الحديث عن المجاز والتشبيه، إذ ذكرناه في سياق الحديث عن المعنى.

وخلاصة القول: أن الرسالتين جاءتا كبطاقتي تهنئة لعضد الدولة، ولكنهما اختلفتا في الأسلوب، وكلا الرسالتين واضحة المعنى، سهلة اللفظ. ولكن نرى التكلف في الثانية أوضح منه في الأولى، وقد خلت الأولى من المقدمة وهذا ما احتوته الثانية. اهتمت الأولى بالتوأمين، واهتمت الثانية بوالدهما.

### جواب إلى عضد الدولة

كتب إلى عضد الدولة كتاباً منه " .. وقد يعدُّ أهلُ التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها وانتقاض مررها والأحوال الداعية إلى ارتفاع جُلِّ الموجود منها وعدم الزيادة فيها الطوفانُ بالنار والماء والموتان. العارضُ من عموم الأوباء وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء فان كلَّ ذلك يخرم العلوم اختراماً وينتهكها انتهاكاً ويجتثُّ أصولها اجتثاثاً. وليسَ عندي الخطبُ في جميع ذلك يقاربُ ما يولده تسلطُ ملكٍ جاهلٍ تطولُ مدتهُ وتتسعُ قدرتهُ فان البلاءَ به لا يعدُّ له بلاء. وبحسبِ عظمِ المحنةِ بمن هذه صفتُهُ والبلوى بمن هذه صورتهُ تعظيمِ النعمةِ في تملكِ سلطانِ عالمِ عادلٍ كالأمير الجليل

الذي احلّه الله من الفضائل بملتقى طرقها ومجتمع فرقها وهي نواذرٌ نوافرٌ ممن لاقت حتى تصيرَ إليه وشواردٌ نوازحٌ حيثُ حلت حتى تقعَ عليه تتلفت إليه تلفتَ الواثق وتتشوفُ نحوهُ تشوفَ الصبّ العاشق قد ملكتها وحشهُ المضاع وحيرةَ المرتاع.

فإن تغشَ قوماً بعده أو تزورهم فكالوحوش يدينها من الانس المحل<sup>(1)</sup>

وكتب أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد إلى القاضي أبي محمد الخلافي

"بسم الله الرحمن الرحيم، أيها القاضي الفاضل أطلّ الله بقاءك، وأدامَ عزك ونعماءك، من أسر داءه، وسترَ ظمائه، بعدَ عليه أن يبيلَ من غلته، وقد غمرني منذ قرأتُ كتابك إلى الشريف -أيدهُ الله- شوقٌ استجذبَ نفسي واستفزها ومدَّ جوانحي وهزها، ولا شفاءَ إلا قريك ومجالستك، ولا دواءَ إلا طلعك ومؤانستك، ولا وصولَ إلى ذلك إلا بزيارتك واستزارتك، فإن رأيت أن تؤثر أخفها عليك، وتعلمني أثرهما لديك، وتقدم ما استنسبت<sup>(2)</sup> في ذلك، فعلت، فإني أراعيه أشدَّ المراعاة، وأطلعهُ في كلِّ الأوقات، وأعدّ على الفوز به الساعات"<sup>(3)</sup>.

فأجابه الخلافي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، قرأتُ التوقيع -أطلّ الله بقاء الأستاذ الرئيس - فشحذَ الفطنة وأنسَ الوحدة، وألبسَ العزة وأفادَ البهجة، وقلتُ كما قالَ رؤبة لما استزاره أبو مسلم صاحبُ الدعوة:

لبيك إذ دعوتني لبیکا أحمدُ رباً ساقني<sup>(4)</sup> إلیکا

فأما الإجابة عن أفصح بيان، حُطَّ بأكرم بنان، واضح كالزهر المونق، مالكٌ لرقاب المنطق، فما أنا منها بقريب، وهيئات أني لي التناوشُ من مكان بعيد، لكني على الأثر، ولا أتأخر عن الوقت المنتظر، إن شاء الله تعالى"<sup>(5)</sup>.

(1) أثبت هذا الفصل الثعالبي في بيتمة الدهر و اورد الحصري في زهر الأدب جزءاً أطول منه نقلناه في الصفحة (46) من هذه الرسالة.

(2) ما ألبسه.

(3) ياقوت الحموي، معجم الأبياء، ج2، تحقيق إحسان عباس، ص925-926.

(4) ربي سابقاً؛ والتصويب عن ديوان رؤبة، 181 (ونبه عليه الأستاذ النشاشيبي).

(5) ياقوت الحموي، معجم الأبياء، ج2.

## التحليل:

هذه من إحدى توقيعات أبي الفضل بن العميد الرسمية التي أرسلها إلى القاضي أبي محمد الخلامي طالباً زيارته واستزارته، وجاء هذا التوقيع أقرب ما يكون إلى الرسائل، إذ ابتدأ بالبسملة، ومن ثم الدعاء للمخاطب، حينما قال: "أطال الله بقاءك، وأدام عزك ونعماءك". فهو في هذا ذكر الله ودعا للمرسل إليه، وكان ذلك استهلالاً طيباً يمثل مقدمة.

ومن ثم عرض له سبب كتابته لهذا التوقيع، وهو قراءته لكتاب الشريف، ويذكر ابن العميد أن هذا الكتاب يحرّك النفس ويستنهض المشاعر فيها، فقال: "شوق اجتذب نفسي واستفزها، ومدّ جوانحي وهزّها".

ومن ثم قدّم له طلب المشاهدة والمجالسة، سواء كان ذلك بزيارته أو استزارته. وجعل القول الفصل للقاضي محمد بن خالد، فهو يرى ما يناسبه أكثر وأحقه عليه، وهو مستعد لتنفيذ ما يطلبه، وهو على أحر الشوق لذلك. فالرئيس في انتظاره يعدّ الساعات ويحسبها دقيقة بدقيقة.

هكذا نرى ابن العميد يستوفي عناصر الرسالة في أصغر التوقيعات، فاحتوى هذا التوقيع على مقدمة وعرض ونهاية، ومن الناحية الفنية، لم يخلُ هذا التوقيع من السجع الذي هو الطابع العام كما ذكرنا أنفاً فجاء سجعه في: (بقاءك، نعماءك)، (مجالستك، مؤانستك)، (الأوقات، الساعات)، (عليك، لديك)، (استفزها، هزّها)، ومثلما لم تخلُ من السجع، فهي تحتوي مثلاً على الجناس هو: (مجالسة، مؤانسة)، وتحتوي على بعض الترادف الذي يخدم المعنى مثل: (شفاء، دواء).

وكعادة ابن العميد في المجاز والبلاغة في كتاباته، فنراه يشبه الشوق بالبحر الذي تغمر مياهه مرتادها تارة، وأخرى بالإنسان الذي يستجذب ويستفز النفس ويستنهضها، وأضاف إلى ذلك أن شبه نفسه بالطير ذي الجناحين وشوق كتابه جعل رعدة في الجناحين فاهترا فطار من شدة الفرح.

وأما اللفظ فجاء سهلاً واضحاً، يسهل على القارئ الخوض في بحره، وهذا أدى إلى وضوح المعاني.

وما كان من القاضي أبو محمد الخلافي إلا أن سارع في الاستجابة، ولبى دعوة الأستاذ الرئيس وأرسل له جواباً يبين ذلك جلياً فيه.

### الرسائل الإخوانية:

من أبي الفضل بن العميد لمن تزوجت أمه وكتب أبو الفضل بن العميد في بابه: "الحمد لله الذي كشفَ عنا سترَ الحيرة، وهدانا لستر العورة، وجدع<sup>(1)</sup> بما شرعَ من الحلال أنفَ الغيرة، ومنعَ من عضل الأمهات، كما منعَ من وأد البنات، استنزالاً للنفوس الأبية، عن حميةِ الجاهلية، ثم عرضَ للجزيل من الأجر من استسلمَ لمواقع قضائه؛ وعودَ جزيلَ الثوابِ لمن صبرَ على نازلِ بلائه؛ وهناكَ الله، الذي شرحَ للتقوى صدرك، ووسعَ في البلوى صبرك، ما ألهمك من التسليم بمشيئته، والرضا بقضيتته، ووقفكَ له من قضاءِ الواجبِ في أحدِ أبويك، ومن عظمَ حقّه عليك؛ وجعلَ الله تعالى حدّه<sup>(2)</sup> ما تجرعتُهُ من أنف<sup>(3)</sup>، وكظمتُهُ من أسفٍ، معدوداً يعظمُ الله عليه أجرك، ويجزلُ به ذكرك؛ وقرنَ بالحاضر من امتعاضكَ لفعالها المنتظر من ارتماضكَ لدفنها<sup>(4)</sup> وعودكَ من أسرةِ قرشها أعوداً نعشها؛ وجعلَ ما ينعمُ به عليكَ من بعدها من نعمةٍ مُعرى من نعمة، وما يوليكَ بعدَ قبضيتها من منحةٍ مُبرأ من منحة<sup>(5)</sup>."

### التحليل

جاءت هذه الرسالة من أبي الفضل إلى كل من تزوجت والدته بعد وفاة أبيه، فبدأ الرسالة بذكر الله، ومن ثم التذكير بفضل الدين وحث النفوس على الصبر والتصبر، والقبول بهذا الأمر، لأنه ستر للعورة، ولأنه سنة من سنن الله سبحانه وتعالى.

وحتت هذه الرسالة بطريقة غير مباشرة على التخلص من عادات الجاهلية والتبرؤ منها، وياحور ابن العميد المخاطب، وكأنه يستشف في نفسه صفة الرفض وعدم القبول. ومن خلال هذا

(1) الجدع: القطع، وقيل هو القطع البائن في الأنف والأذن والشفة واليد ونحوها.

(2) الحد: البأس ومثله الجلد.

(3) الأنف والأنفة: الحمية.

(4) الارتماض: الحزن.

(5) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، ص477.

الحوار يحاول تعظيم المخاطب وتثبيته على الصبر على الموقف، مذكراً إياه بما سيناله من أجر على صبره وكظمه للغيب.

ولم نستطع أن نغفل محسنات ابن العميد وصنعتة، التي يشتهر بها في كل نص مهما كان قصيراً، فما هو السجع يسطع بنوره على سطور هذه الرسالة، فنرى إضاعته تبدأ من أول الكلام فيها، فمثلاً قوله: (الحيرة، العورة، الغيرة)، (الأمهات، البنات)، (الأيبة، الجاهلية)، (قضائه، بلائه)، (أبويك، عليك)، (أنف، أسف)، (صدرك، صبرك)، (ذرك، أجرك)، (نعمة، محنة)، (بمشيئته، بقضيته).

وبعد النظر إلى نور السجع، فلنشعل شمعة الجنس التي وإن ذابت قليلاً، فإنما ذوبانها لإعطاء البهجة والتأنق على النصوص، فلننتبعها في هذا النص، لنجد منها: (سيئر، سئر)، (الحيرة، الغيرة)، (عرّض، عوّض)، (صدرك، صبرك)، (أنف، أسف)، (نعمة، نقمة)، (منحة، محنة).

والمأمل في كتابة هذا النص المتأنقة، يرى أن ابن العميد استخدم كل ما يعطي النص جمالاً وانسياباً، كدأبه في سائر النصوص. ونرى أنه اقتبس من القرآن الكريم، وإن لم يكن الاقتباس حرفياً، بل إنه اقتباس الفكرة والمعنى من قوله تعالى: "ألم نشرح لك صدرك"<sup>(1)</sup>، عندما قال: "الذي شرح للفقوى صدرك"<sup>(2)</sup>.

وبعد، فمن الجدير أن نذكر أنّ هذا النص يتميز بخصائص مشابهة لما سبقه مثل الوضوح، وسهولة الألفاظ، وهذا ما خدم التسلسل البنائي للرسالة.

### رسالة من ابن العميد إلى بعض إخوانه (1):

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب ورد إليه (فأحمده): "وصل ما وصلتني به، جعلني الله فداك، من كتابك، بل نعمتك التامة، ومنتك العامة؛ فقرت عيني بوروده، وشفت نفسي بوفوده، ونشرته فحكى نسيم الرياض غب المطر، وتنفس الأنوار"<sup>(3)</sup> في السحر، وتاملت مفتحه، وما اشتمل عليه من لطائف كلمك، وبدائع حكماك؛ فوجدته قد تحمل من فنون البرّ عنك،

(1) سورة الشرح آية رقم (1).

(2) رسالة ابن العميد لمن تزوجت أمه، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، ص47.

(3) الأنوار: جمع نور، وهو نوار الزهر.

وضروبِ الفضل منك، جداً وهزلاً، ملأ عيني، وعمرَ قلبي، وغلبَ فكري، وبهرَ لبي؛ فبقيتُ لا أدري: أسموطُ ذرّ خصصتني بها، أم عقودُ جوهرٍ منحنتيها؟ كما لا أدري أباكراً زففتها فيه، أم روضةً جهزتها منه؟؛ ولا أدري أخدوداً ضُرجت حياءً ضمنته؟؛ أم نجوماً طلعت عشاءً أودعته؟؛ ولا أدري أجدكُ أبلغَ وألطفَ؟، أم هزلِك أرفعَ وأظرفَ؟؛ وأنا أوكلُ بتتبع ما انطوى عليه نفساً لا ترى الحظَّ إلا ما اقتنته منه، ولا تعدُّ الفضلَ إلا فيما أخذتهُ عنه، وأمتعُ بتأملِه عينا لا تقرُّ إلا بمثلِه، مما يصدرُ عن يدك، ويردُّ من عندك، وأعطيه نظراً لا يمله، وطرفاً لا يطفئُ دونه، وأجعله مثالا أرتسمه وأحتذيه، وأمتعُ خلقي برونقه، وأغذي نفساً ببهجته، وأمزجُ قريحتي برقته، وأشرحُ صدري بقراءته، ولئن كنت عن تحصيل ما قلتهُ عاجزاً، وفي تعديدي ما ذكرتهُ متخلفاً؛ لقد عرفتُ أنه ما سمعت به من السحر الحلال".<sup>(1)</sup>

### التحليل:

يعد هذا الكتاب من الرسائل الإخوانية التي جاءت رداً على أحد الكتب المبعوثة إلى ابن العميد، وعبرَ فيها عن إعجابه الشديد، وانبهاره بما قرأ. وكان تعبيره بأسلوب عالٍ وراق يثير إعجاب القارئ.

بدأ رسالته بالدعاء إلى المخاطب وإخباره بتسليم كتابه وقراءته فقال: " وصل ما وصلتني به، جعلني الله فداك"<sup>(2)</sup>، وعبرَ عن سروره وغبطته بهذا الكتاب، الذي يمثل الخير في نظر الأستاذ الرئيس، فشبهه بالرياح العليلة التي تحمل فيها قطرات المطر الخفيفة والتي تجعل الجو لطيفاً، وهذه الرياح هبت على الأزهار قبيل الفجر فنشرت عبقها الطيب في المكان. وفي هذا مجاز رفيع.

وبعد هذه المقدمة اللطيفة، بدأ ينثر عبارات المدح للكتاب ولصاحبه، فقال: "وتأملت مفتحه، وما اشتمل عليه من لطائف كلامك، وبدائع حكمك"<sup>(3)</sup> فكأنه يريد أن يقول أنه نظر إلى بداية الكتاب، فكان فيه من الكلام الجيد والحكمة العالية ما ينبئ عن محتوى أفضل، أي أن المكتوب يظهر من عنوانه،

(1) من ابن العميد إلى بعض إخوانه، زهر الآداب وثمر الألباب، ص 30-31.

(2) المصدر نفسه، ص 30-31.

(3) المصدر نفسه، ص 30-31.

(3) المصدر نفسه ص 30-31.



فإذا شاهد هذا في افتتاح الكتاب، فكيف سيكون الأمر حينما يمضي إلى ثناياه ودقائقه وصولاً إلى خاتمته؟.

ويمضي الرئيس يكيل عبارات المدح والثناء لصاحب الكتاب، فيقول: "فوجدته قد تحمل من فنون البر عنك، وضروب الفضل منك، جداً وهزلاً"<sup>(3)</sup> أي أن هذا الكتاب يعبر عن فضل صاحبه في الدنيا، ومعرفته في الضربين: الجدّ والهزل. ويظهر ابن العميد إعجابه الشديد في قوله: "ملاً عيني، وعمّر قلبي، وغلب فكري، وبهر لُبي" ويشير بهذا القول إلى أن هذا الكتاب نور للبصر والبصيرة، وهو منبع أو منهل ينهل منه العقل والعلم والمعرفة، وفي هذا رمز إلى صاحبه.

ويمضي ويعبر عن إعجابه الشديد بهذا الكتاب وكأنه وسام له فيعبر عنه بالسَّنَسال الذي يحتوي القلائد النفيسة، وعقود الجواهر النادرة، فيقول: "أسموط ذر خصصتني بها، أم عقود جوهر منحتنيها؟"<sup>(1)</sup> والسموط مفردها سمط وهي خيط القلادة.

ويؤكد الرئيس على الجودة والرفعة في سائر الرسالة، مشيراً إلى إبداع صاحبه في ضربي الجدّ والهزل، وهو لذلك محتار في أي الضربين يبدع أكثر، والكلام عن المرسل إليه، وبيان ذلك قوله: "ولا أدري أجدك أبلغ وألطف، أم هزلك أرفع وأظرف"<sup>(2)</sup>. ويعد العلم والرفعة فيما أخذه عنه، فهو خير نموذج يحتذى، يرتسمه منهجاً يسير عليه، ويعلمه لمن معه. فيقول: "واجعله مثالا أرتسمه وأحتذيه، وأمتع خلقي برونقه، وأغذي نفسي ببهجته"<sup>(3)</sup>.

ويختم بالإشارة إلى حصوله على معارف جديدة لم يكن يعرفها من قبل، مثل معرفته بالسحر الحلال، وهذا في قوله: "لقد عرفت أنه به من السحر الحلال"<sup>(4)</sup>.

ومن الناحية الفنية، احتوت هذه الرسالة جميع ضروب المحسنات البديعية، فمن ينقب في حقل السجع، يرى أنابيبها تنفجر في ثنايا هذه الرسالة، ومن الأمثلة على آبارها: (التامة، العامة)، (وروده، وفوده)، (المطر، السّحر)، (كلمك، حكمك)، (عنك، منك)، (ضُمَّنته، أودعته)، (ألطف، أظرف)،

(1) من ابن العميد إلى بعض إخوانه، زهر الآداب وثمر الألباب، ص 30-31 .

(2) المصدر نفسه، ص 30-31 .

(3) المصدر نفسه، ص 30-31 .

(4) المصدر نفسه، ص 30-31 .

(بهجته، رفته). ومن الجميل أن ابن العميد لم يجعل السجع بين الكلمات فحسب، بل جعله في الحروف أيضاً مثل: (عنك، منك). ولا تكاد تبحث عن مُحسّن بديعي، إلا وتلقى له نصيباً وحظاً وافراً في كتاباته. فمن يبحث عن الطباق يجده بسهولة، فمثلاً نلمح ذلك في قوله: (جِدّ، هزل)، (يصدر، يَرد). وللجناس حظ في هذه الرسالة، ولم يكن حظه بالقليل، فالمتبع له يجد أمثلة كثيرة منها: (وروده، وفوده)، (عنك، منك)، (التامة، العامة). وتركز الجناس في مقدمة الرسالة.

وخدم الترادف هذه الرسالة بطريقة عالية، فقد أكثر ابن العميد منه، ومن أمثله : (نعمتك، مُتّك)، (لطائف، بدائع)، (فنون، ضروب)، (ملا، عمّر)، (خصصتي، منحتي)، (بلغ، أرفع)، (الطف، أظرف)، (اقتنته، أخذته)، (نظراً، طرفاً)، (ارتسمه، أحتذيه)، (رونقه، بهجته)، (عاجزاً، متخلفاً).

ويجري نهر المجاز بانسياب رقرق في هذه الرسالة، فنراه يشبه الكتاب بإنسان يرد ويفد عليه فيبتهج به وكأنه نعم الورد المورد. وذلك من قوله: "فقرت عيني بوروده، وشفيت نفسي بوفوده"، وقد أشرنا إلى المجاز في: "نشرته فحكى نسيم الرياض غب المطر، وتنفس الأنوار في السحر أنفاً".

ويبدع في مدحه حينما يشبه هذا الكتاب وما فيه بعروس بكر في ليلة زفافها، أو في جنة من صنيعه. والكتاب بما يحتويه من كلام كأنه بذلة العروس، لما يحتويه من زخرف وتأنق.

وبعد قراءة هذه الرسالة، والإيجاز في تحليلها، كنت أتمنى لو أن الدراسات أشارت إلى صاحب هذا الكتاب، الذي تأنق ابن العميد في مدحه، وعادة ابن العميد أن يُمدح أكثر مما يمدح، وهو ما يبعث على الغرابة والدهشة في النفس. فلا بد أن يكون صاحب هذا الكتاب ذا مكانة عالية جعلت الأستاذ الرئيس يمدحه كل هذا المدح. وعلى أي حال، أياً كان صاحب هذا الكتاب المبعوث إلى الأستاذ الرئيس، فله منّا جزيل الشكر وعظيم الامتنان لاستثارته لقريحة ابن العميد التي فاضت به، فجاءت الرسالة واضحة المعاني سهلة الألفاظ غير متكلفة، تعطي إحساساً أنها نابعة من فيض دافق من المشاعر. وتحتوي على جميع أنواع المحسنات والمجاز، وتعبّر عن براعة عالية لدى الكاتب.

## رسالة ابن العميد إلى أبي عبدالله المكي نديم عضد الدولة

"لأن تُرجى من بعيدٍ مراتٍ خيرٍ من أن تُقصى من قريبٍ مرة، وليكن كلامك جواباً يُتحرزُ فيه، ولا تعجبين بياني كلمةً محمودة، فليجّ بك الأطنابُ توقيعاً لمتلها، فربما عثرتُ بما يهدمُ ما بنته الأولى ثم لا تعلم<sup>(1)</sup> من تمثّل صاحبك بقولهم: ربّ رميةٍ من غير رام، وبضاعتك في النثر قليلة، مزجاة<sup>(2)</sup>، وبالعقل يزّم<sup>(3)</sup> اللسان، ويلزّم السداد، فلا يستفرنك طربة الكريم<sup>(4)</sup> على ما يفتيك عقلك، والشفاعة لا تعترضنّ لها فانها مخلقة للجاه، وإن اضطرت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرفَ وقتها، وتحصلَ وزنها، ويتقدمك من يتكلم فيها، فإن وجدتَ النفسَ بالإجابة سمحة، وإلى الاسعافِ هشة، فأظهر ما في نفسك غيرَ محقق، ولا موهمَ أنّ في الردّ عليك ما يوحشك، وفي المنع (ما) يقبضك، وليكن انطلاقُ وجهك إذا دُفعت عن حاجتك أكثرَ منه عند نجاحها على يدك، ليخفّ كلامك، ولا يتقلّ على مستمعه منك. أنا أقول ما أقول غير واعظٍ، ولا مرشد، فقد كملّ الله خصالك، وحسنّ خلاك، إذ فضلك في كلّ حالك، ولكني أنبهُ تنبيهَ المشارك، وأعلمُ أنّ للذكرى موقعاً ونفعاً.

قلت له: قد استحسنتُ له حسناً، وله أبلغُ منه فقال: كذاك هو. قلت: فإنه مع هذا قد أخطأ في العربية في موضع، فدلتته عليه. فقال: لله أبوك، ولم أذكر الموضع -أيدك الله- بالقلم لتكون أنتَ قارئه، أعني أنك تقرأ حرفاً حرفاً حتى تصيبه، فليس الخطأ المستدرِك بالتتبع، كالمعثور عليه بالهجوم<sup>(5)</sup>.

### التحليل:

أرسل ابن العميد رسالته لأبي عبد الله المكي العلوي نديم عضد الدولة وهذه الإشارة تدل على أن هناك معرفة قوية بينهما، -إذ أنهما عاشا في عصر واحد- ناصحاً إياه لسلوك طريق الرشاد. ويشير بأن كتابه هذا ليس وعظاً ولا توجيهاً أو إرشاداً، بل هو باب التذكير، لعلّ الذكرى تنفع المؤمنين. وفيما قيل عن هذا الكتاب، أشار التوحيدي، وهو صاحب المثالب، أنّ من حسن هذا الكتاب

(1) في الأصل تعلم ولعلها تعلم كما أثبتنا.

(2) مزجاة: قليلة وقيل ردية.

(3) يزّم: أي يشد.

(4) كذا في الأصل والعبارة غير مستقيمة.

(5) أبو حيان التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص 275-276.

يستحق أن تكتب حروفه بالذهب، دلالة على جودة الفكر والأسلوب، وهذه شهادة لها وزنها وقيمتها التي نستطيع أن نلمحها بسهولة ويسر بعد قراءة الفصل السابق من هذه الأطروحة.

ومن العجب في هذه الرسالة أن السجع لم يطغَ فيها كما في مثيلاتها، ولا نعني بهذا أنه غير موجود، بل هو موجود في وقتها، نذكر منها على سبيل المثال: (خصالك، خالك)، (يوحشك، يقبضك)، (المشارك، حالك)، (وقتها، وزنها)، وجاء أشبه بالفواصل القرآنية، وكذلك الجنس، إذ لم نلمحه في مواضع قليلة منها: (خلالك، خصالك)، (يُزم، يلزم). وما ينطبق على الجنس، ينطبق على الطباق، ومن أمثله: (بعيد، قريب)، (يخف، يثقل)، وفيها اقتباس من القرآن الكريم من الآية: "فذكر إن نفعت الذكرى"<sup>(1)</sup>، وذلك في قوله: "وأعلم أن للذكرى موقعا ونفعا".

وما يميز هذه الرسالة أنها يمكن تصنيفها إخوانية من باب التذكير والنصح، ورسمية كونها صادرة من الوزير إلى نديم عضد الدولة فلو شاء ابن العميد لجعلها مرسوماً وجب على النديم تنفيذه.

وكم كنا نتمنى لو أن التوحيدي أورد هذه الكلام الذي شبهه بالذهب كاملاً، لنتمكن من رؤية هذا البريق بشكل أوضح، وإعطائه حقه في التحليل والتعليق.

#### كتاب ابن العميد لأبي دلف الخزرجي<sup>(2)</sup>

وحدثني أبو غالب الكاتب قال: "كتب أبو الفضل إلى أبي دلف الخزرجي في أوائل عنته التي نهكته وخالفته يعاتبه ويعابته فقال: الآن علمت أيها الشيخ أنك لي مكابد، وإلي جميع ما أنهاك عنه مخالف، وعلى ديدنك المعروف ثابت، وبفضلة لسانك مسحور، وبشائع حلمي عنك مغرور، وليت تثقتك بذلك لا تخونك، وتطولي عليك لا يتناول بك، واغترارك بغيري لا يزلك، ولينك إذ قد ضللت سواء السبيل في حظك شاورتني فكنت لا أبخلُ عليك بالهداية، يا هذا! شكوتُ اليك أوائل هذه العلة التي قد تحوبتني ونهكتني، وكان التلاقي سهلاً، وباب العافية مفتوحاً، فوعدت بالقيام عليها، وبذل النصيحة في تدبرها، وكنتُ لشكري لك على ذلك حائزاً، وبمقترحك مني فائزاً، فتعاسيت عني بلا عذر، ووقفنتي بين وصلٍ وهجر، فلم أدر كيف أحاطبك، وعلى ماذا أعاتبك، لأنني يئستُ من نجوع

(1) سورة الأعلى: آية (9).

(2) أبو دلف هو مسعر ابن المهلهل صاحب الشعر المليح وطرف الكلام، ذكر بعض المؤرخين أن أصله من الدورق من الأحواز.

العذاب فيك ومن إحاكة الخطاب في قلبك، لأنك مشهور بقحة، ومذكورٌ بسلاطة، ومعتادٌ للبهت، وجار على الكذب، وأول ذلك أنك تدّعي بنوة محمد بن زكريا من ناحية ابنته، وقد شاهدتُ محمداً وما خلف بنتاً، ولا ولدت بنتاً لم يكن لها ابناً، ولو كانت له بنتٌ وولدت ابناً لم يكن أنت ، ذاك للغوائل المجموعة فيك، والعيوب المتناثرة عليك، ولم تكن العلة التي رجعت إليك في تدبيرها صرعاً ولا صداماً، ولا جنوناً، ولا جذاماً، ولا صمماً، ولا بكماً، ولا فالجاً، ولا قوةً، ولا سكتةً، ولا زمانةً، ولا شللاً، ولا أدرّةً، ولا علة لا يقوم بمسحها إلا المسيح الذي هو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم بنت عمران التي أحصنت فرجها ، ولم تحتج في مداواتي إلى الرقي والعزائم، ولا إلى النفق في الأرض، أو إلى الطيران في السكاك، ولا إلى يد بيضاء كيد موسى بن عمران، ولا إلى عصي موسى، ولا إلى قميص يوسف، ولا إلى عرش بلقيس، ولا إلى لوح من سفينة نوح، ولا إلى فلذة من كبش إبراهيم الذي فدى الله به ابنه اسماعيل كما قال تعالى: "وفديناه بذبح عظيم"<sup>(1)</sup> ولا إلى الصدفة التي كانت بها الدرّة اليتيمة، ولا إلى شطيبة من سنام ناقة صالح، ولا إلى زبرة من زبر الحديد الذي جعل ردماً لياجوج ومأجوج. ولا عس من لبن بقرة بني اسرائيل التي ذبحوها "وما كادوا يفعلون"<sup>(2)</sup> ولا إلى أدمغة الطير الأبابيل التي رمت بحجارة من سجيل، ولا تربة من "ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد"<sup>(3)</sup>، ولا إلى قطعة من السحاب المسخر بين السماء والأرض، ولا إلى لمعة من البرق الذي يخطف الأبصار، ولا إلى متقال من صوت الرعد الذي يسبح بحمده تعالى، ولا إلى ذرة من الشمس التي جعلت ضياءً للعالمين، ولا إلى فيضة من القمر الذي جعل نوراً لأهل الخافقين، ولا إلى صيغ من الأصباغ الذي يظهر في قوس قزح غب الأنداء المتصلة، ولا إلى متقال من التراب الذي يحسبه الظمان ماء"<sup>(4)</sup>، ولا إلى شيء من شحم الذئب الذي لم يأكل يوسف، ولا إلى ناب الكلب الذي كان "باسطاً ذراعيه بالصيد"، الذي "لو اطلعت عليه لوليت منه فراراً، ولملئت منه رعباً"<sup>(5)</sup> ولا إلى الكبريت الأحمر، ولا إلى المومياني الأبيض الذي لا يوجد، ولا إلى حيلة بلنياس، ولا إلى قطرات من ماء الحيوان تعجن به هذه الادوية، ولا إلى منخل ينخل من شعر ذنب حمار عزيز الذي أماته الله مائة

(1) سورة الصافات: آية 107.

(2) سورة البقرة: آية 71.

(3) سورة الفجر: آية (7-8).

(4) سورة النور: آية 39.

(5) سورة الكهف: آية 18.

عام ثم بعثه فتخلل به العقاقير، ولا إلى مرارة العناء المغرب التي لم ترَ قط، ولا إلى مخّ البعوض ، ولا إلى بيض الأنوق.

ولم تحتج في تدبير عنتي، وجميع أدويتي إلى نهار لا ليلَ بعده ولا إلى ليل لا نهارَ بعده، ولا إلى نهار مولج في ليل، ولا إلى ليل مولج في نهار، ولا إلى زمان يخرج من أن يكون ربيعاً، أو صيفاً، أو شتاءً، أو خريفاً، ولو ظننت أن هذه كلها أو بعضها تلزمتك أو تدخل في تكلفك لآثرت الموت على العافية، فإن في الموت خلاصاً منك. ومفارقة لمتلك، والله ما أندب إلا حسن ظني بك، ومباهاتي أهل مجلسي بفضلك، وقولي: أبو دلف! وما أدراك ما أبو دلف، لا تتظروا إلى هزله فإن وراء ذلك جداء، وإن أردتم حقيقة ما أقول فافزعوا إليه في حوائجكم فإنكم تجدونه في قضائها قبل إنهائها، وهو المرء الذي قد جمع الله له بين المنظر والمخبر، وبين الدعوى والبينة وبين القول والحجة، وبين الضمان والوفاء، وبين الصداقة والشفقة، فما زلت أقول هذا وشبهه، وأصحابي يشيعون قولي بمثله في الظاهر، ويخالفونني بعلمهم في الباطن حتى كان الفلج لهم ساعة هذه، لأنني احتجت إلى علمك فخيبت عهدي، وأقبلت عليك فأعرضت عني، ووهبت لك كلي فبخلت ببعضك علي:

فـيـا ربّ مظنونّ به الخيرُ يخلفُ

ولقد استقدتُ بمعرفتكَ تجنّبَ متلك، ويقال: لم يهلك من مالك ما وعظك، ومن أطلعك على خبيئة من خيره وشره، فقد أراحك من طويل الفكر فيه، وكفأك خطر التجربة له والسلام<sup>(1)</sup>

### التحليل:

كتب ابن العميد رسالته لأبي دلف الخزرجي ، يطلب منه علاجاً وهو في بداية علته ومرضه، فتأخر عليه أبو دلف ولم يلب دعوته ، فجاءت هذه الرسالة بمثابة عتاب ولوم من الأستاذ الرئيس لأبي دلف، ويمكننا أن نعتبر هذه الرسالة من إخوانيات ابن العميد . فهو أكثر فيها من التعبير عن العواطف التي جاشت بها صدره ، فبدأها بالعتاب واللوم مباشرة ، فذكر أنه ( أي أبو دلف) مكابد له ومخالف لأمره ، وأنه يمنع دواءه وطبه عنه، وأنه غير طائع لأمره ، فقال فيه: " الآن علمت أيها الشيخ أنك لي مكابد ، وإلى جميع ما أنهاك عنه مخالف " .

(1) أبو حيان التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص 285-289.

ويشير الأستاذ الرئيس إلى أن المخاطب صفته الصد والجود ، ولكنه كان يأمل فيه التغيير . ولكنه لم يزل ثابتا على موقفه ولم تغير فيه الأزمان ، فيقول : " فأنت على ديدنك ثابت " ، ويقصد أبا دلف الخزرجي ، فهو بذلك مزج عتابه بزم ، فألمح إلى أن أبا دلف قد يكون مغررا به من غير ابن العميد لكي لا يلبي دعوته، فهو يشير إلى غروره وأنه أداة طيعة بأيدي الآخرين فقال فيه : " وبشائع حلمي عنك مغرور" ، وقال أيضا : " واغترارك بغيري لا يزلك " .

وينتقل الرئيس بعد هذه المعاتبة والذم إلى بث شكواه من علته التي يقول عنها أنها أنهكته وأتعبته، وقد ذكرنا في فصل سابق قصة ابن العميد مع القولونجي والنقرس ، اللذين عانى منهما أواخر حياته، فيقول لأبي دلف بما معناه إن كنت طامعا في حال فإني لا أبخل عليك به ، وإن كنت تطمع بهدايا فلك منها الكثير، وسأبذل لك كل ما تطلب في سبيل علاج هذه العلة ، ويتعجب لماذا قام أبو دلف بهذه الفعلة التي يشير إليها بضلال السبيل ، فيقول : وليتك إذ قد ضللت سواء السبيل في حظك شاورتني فكنت لا أبخل عليك بالهدايا ، يا هذا ! " .

ويشير الأستاذ الرئيس إلى أن صاحبه تحلى بصفة المنافق التي هي خلف الوعد ، فيعاتب أبا دلف على النكوث بوعده ، فهو قد وعده بتقديم الدواء لعلته ، ولكنه لم يفعل ، وهذا ما لم يتمناه ابن العميد، فقال: شكوت إليك أوائل هذه العلة التي قد تحوبتني ونهكتني، وكان التلاقي سهلا، وباب العافية مفتوحا، فوعدت بالقيام عليها، وبذل النصيحة في تدبرها، وكنت لشكري لك على ذلك حائرا، وبمقتحرك مني فائزا، فتقاعست عني بلا عذر، ووقفقتي بين وصل وهجر."

ويبين ابن العميد مجموعة خصال سيئة في أبي دلف الخزرجي ، ولأجلها قد يؤس منه ومن معاتبته، فهو يشير إلى أنه لا يدري على ماذا يعاتبه ، فيقول: " لأني يؤس من نجوع العذاب فيك، ومن إحاكة الخطاب في قلبك " ، ويمضي بعد ذلك ويذكر الخصال السيئة، فيقول: " لأنك مشهور بقحة، ومذكور بسلاطة، ومعتاد للبهت وجرار على الكذب " ، ويمضي الأستاذ الرئيس في تنفيذ هذه الخصال، ويذكر أمثلة عليها، فمنها ما ادعاه من بنوة محمد بن زكريا من ناحية ابنته، ويشير الأستاذ الرئيس إلى أن محمد بن زكريا ليست له بنات، ولو كان له بنات فإن مثل أبي دلف الخزرجي لا يخرج من أرحامهن، فيقول: " وقد شاهدت محمدا وما خلف بنتا، ولا ولدت بنت لم يكن له ابنا، ولو كانت له بنت وولدت ابنا لم يكن أنت."

ويظن ابن العميد في طريقة علاجه التي يذكر مسهباً أنها لا تحتاج إلى معجزة سماوية ولا إلى شيء من المستحيلات ، فعلاجه لا يحتاج إلى قميص يوسف عليه السلام ولا يحتاج إلى شيء من ناقة صالح أو بقرة بني اسرائيل ، ولكن أبا دلف قد خيب ظن الرئيس فيه، وقد جعله يندم على مدحه إياه في مجالسه، فأشار ابن العميد إلى ذلك بقوله في آخر رسالته: " والله ما أندب إلا حسن ظني بك، ومباهاتي أهل مجلسي بفضلك"، ويستمر ويذكر كما يقول صفات أبي دلف وهي: "أبو دلف! وما أدراك ما أبو دلف، لا تتظروا إلى هزله فإن وراء ذلك جد، وإن أردتم حقيقة ما أقول فافزعوا إليه في حوائجكم فإنكم تجدونه في قضائها قبل إنهاؤها"، فنجد أن ابن العميد يعبر عن ندمه الشديد وكرهه بشخص أبي دلف، فهو فضل الموت على تحمل جميلة أبي دلف، ولكنه لم يكن يعرف بشخصية أبي دلف من الناحية المعنوية، فهي رسالة تتلخص في طلب وشكوى ولوم وندم وندم على عدم معرفة الاصدقاء، ولو أردنا أن نصنفها فمن الأجدر تصنيفها من الإخوانيات.

أما من الناحية البنائية فقد جاءت هذه الرسالة كبيت تألق مهندسوه في زخرفه وإبداعه، فهي احتوت من المحسنات البديعية أكثرها، لا بل نستطيع أن نقول كلها ، وأول لوحة تبهر نظر القارئ هي لوحة السجع ، ومن قطعها: (نهكته، خالفته)، (عاتبه، ويعابته)، (مسحور، مغرور)، (تحوبنتي، نهكتني)، (حائزاً، فائزاً)، (عذر، هجر)، (أخاطبك، أعاتبك)، (فيك، عليك)، (للعالمين، الخافقين)، (ذئب، كلب)، (علتي، أدويتي)، (قضائها، إنهاؤها)، (المنظر، المخبر)، (الصدقة، الشفقة)، (عهدي، عني).

هذا ما احتوته هذه القطعة الفنية من السجع ، كما يظهر الطباق بشكل جلي فيها ومنه: (وصل، هجر)، (سما، أرض)، (شمس، قمر)، (ظاهر، باطن)، (أماته، بعثه)، (ليل، نهار)، (موت، عافية)، (هزل، جد)، (الدعوى، البينة)، (أقبلت، أعرضت)، (وهبت، بخلت)، (خيره ، شره).

ومن المحسنات البديعية التي ساهمت في رفعة وجودة الرسالة الجناس ومن أمثلته: (يعاتبه، يعابته)، (حائزاً، فائزاً)، (عليك، إليك)، (ليأجوج، مأجوج)، (منخل، ينخل).

وأما المجاز فقد جاء على شكل مخالف لبقية الرسائل، فهو لم يكثر من الصور الفنية والتشبيهات البلاغية، فقد تحدث عن علاجه أنه أمر بسيط لا يحتاج إلى معجزة سماوية كالمعجزات



التي نزلت على الأنبياء، فجعل الصورة بعيدة بين العلاج وطريقته، أي أن طريقته سهلة فقد ظنها أو ادعاها أبو دلف صعبة أو مستحيلة.

وما يلفت النظر في هذه الرسالة الاقتباس من القرآن الكريم التي ذكرت الدراسات أن أبا الفضل يجهلها، فقد اقتبس اقتباسا حرفيا وفكريا، ومن أمثلة الاقتباس الحرفي عندما تحدث عن بقرة بني إسرائيل، " وما كادوا يفعلون "(1)، " وديناه بذبح عظيم "(2).

وأما اقتباس الفكرة فعندما تحدث عن معجزات مريم عليها السلام وابنها المسيح وقميص يوسف الذي رد البصر إلى أبيه وقصص أخرى تفهم من نص هذه الرسالة.

وبعد التأمل في هذه الرسالة يرى الباحث أنها تتميز بسمات منها:

1. خلوها من المقدمة، إذ أن ابن العميد دخل في الموضوع مباشرة وهذا على غير عادته.
2. خلوها من الصور الفنية البلاغية التي اعتاد الرئيس على حسن صياغتها.
3. ظهور تميز لابن العميد في العتاب واللوم مثلما تميز في فن المدح والتعبير عن العواطف.
4. سهولة الألفاظ ووضوح المعاني ، إذ إن هذه الرسالة جاءت معانيها وألفاظها متناسقتين يخدم كل منهما الآخر .
5. ومثلما خلت هذه الرسالة من المقدمة فقد خلت من الخاتمة أيضا لان الرئيس ركز على العتاب والذم وإظهار مساوئ أبي دلف دون الاهتمام بالأمر الأخرى.

ومن رسائله في التهنية ما أرسله إلى عضد الدولة يهنئه بالولدين:

"أطال الله بقاء الأمير الأجلّ عضد الدولة، دامَ عزه وتأييده، وعلوه وتمهيده، وبسطه وتوطيده، وظاهر له من كل خير مزيد، وهناك ما احتظاه به على قرب البلاد، من توافر الأعداد، وتكثر الإمداد، وتثمر الأولاد، وأراه من النجابة في البنين والأسباط، ما أراه من الكرم في الآباء والأجداد، ولا أخلى عينه من فرة، ونفسه من مسرة، ومتجدد نعمة، ومستأنف مكرمة، وزيادة في عدده، وفسح في أمده،

(1) سورة البقرة: آية 71.

(2) سورة الصافات: 107.

حتى يبلغ غاية مهله، ويستغرق نهاية أمله، ويستوفي ما بعد حسن ظنه، وعرفه الله السعادة فيما بشرَ عبده من طلوع بدرين هما انبعثا من نوره، واستنارا من نوره، وحفا بسريره، وجعل وفدهما متلائمين، وورودهما توأمين، بشيرين بتظاهر النعم، وتوافر القسم، ومؤذنين بترادف بنين يجمعهم منخرقُ الفضاء، ويشرقُ بنورهم أفقُ العلا، وينتهي بهم أمدُ النماء إلى غايةٍ تفوتُ غاية الإحصاء؛ ولا زالت السبلُ عامرة، والمناهلُ غامرة، بصفائح صادرهم باليشر وأملهم بالنيل<sup>(1)</sup>.

ونلاحظ في هذه الرسالة أموراً لها أهميتها في مجال الأدب منها :

- فهذه الرسالة تعد من الرسائل الإخوانية لابن العميد، وإن ظهرت بمظهر الرسالة الرسمية، حيث بدأ بالدعاء للأمير بأنواع مختلفة من الأدعية، والتي تظهر مكانة عضد الدولة عند ابن العميد.
- كما بدا السجع واضحاً وأن كان أكثر سجعه منتهياً بالهاء أو التاء.
- وأكثر ابن العميد من الجمل المتوازنه، والتي تظهر فيها الكلمات المترادفه أحيانا.
- وتحمل هذه الرسالة الكلمات المختارة والتي تتناسب مع المعنى ومع الموقف.

## رسالة إلى بعض إخوانه (2)

"أنا أشكو إليك -جعلني الله فداك- دهرأ خووناً غدوراً، وزماناً خدوعاً غروراً، لا يمنحُ ما يمنحُ الاريثَ ما ينتزع، ولا يبقي فيما يهبُ الاريثَ ما يرتجع، يبدو خيرهُ لمعاً ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جرعاً ثم يمتنع. وكانت منه شيمة مألوفة، وسجية معروفة، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض، ويهدي لما يبسطه وشك انتقاض، وكنا نلبسه على ما شرط، وان خاف منه وقسط، ونرضى على الرغم بحكمه، ونستئم بقصده وظلمه، ونعتد من أسباب المسرة أن لا يجيء محذوره مصمتاً بلا انفراج، ولا يأتي مكروهه صرفاً بلا مزاج، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته، ونسترقه من ساعاته، وقد استحدث غير ما عرفناه سنة مبتدعة، وشريعة متبعة، وأعد لكل صالحه من الفساد حالاً، وقرن لكل خلة من المكروه خلالاً.

(1) القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب ط 2، ج 4، ص: 194-195.

وبيان ذلك - جعلني الله فداك - أنه كان يقنع من معارضته الإلفين بتفريق ذات البين، فقد إنثنى ممنواً فيك بجميع ما أوغره، وما أطويه من البلوى منك أكثر مما أنشره، وأحسبني قد ظلمت الدهر بسوء الثناء عليه، وألزمته جرماً لم يكن قدره بما يحيط به وقدرته ترتقي إليه، ولو أنك أعنته وظاهرته، وقصدت صرفه وأزرتة، وبعثتي بيع الخلق وليس فيمن زاد، ولكن فيمن نقص، ثم أعرضت عني إعراض غير مراجع، وأطرحتي أطراح غير مجامل، فهلا وجدت نفسك أهلاً للجميل حين لم تجدني هناك، وأنفذت من حل ما عقدت من غير جريمة، ونكث ما عهدت من غير جريمة. فأجيني عن واحدة منها.

ما هذا التغالي بنفسك، والتغالي على صديقك؟ ولم نبذنتي نبذ النواة، وطرحنتني طرح القذاة؟ ولم تلفظني من فيك، وتمجني من حلقك، وأنا الحلال الحلو، والبارد العذب؟ وكيف لاتخطرنني ببالك خطرة، وتصيرني من أشغالك مرة؟ فترسل سلاماً ان لم تتجشم مكاتبة، وتذكرني فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة؟ وأحسب كتابي سيرد عليك فتنكره حتى تثبت ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تتذكر: فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك، واسمه من صحيفة حفظك، ولعلك تتعجب من طمعي فيك وقد توليت، وإستمالتني لك وقد أبييت، ولا عجب فقد يتقجر الصخر بالماء الزلال، ويلين من هو أقسى منك قلباً فيعود إلى الوصال".<sup>(1)</sup>

### التحليل

جاءت هذه الرسالة من ابن العميد إلى أحد إخوانه يعاتبه على الهجر والبعد والإعراض عنه. وأجاد ابن العميد فيها في سرد أحداثها للوصول إلى هدفه المرجو وهو عودة صاحبه عن القطع والهجر. فبدأها ابن العميد بمعاتبة الزمن الخؤون الذي يغير الأحوال ويغير الأشخاص. وجعل في المقدمة يدعو لصاحبه " جعلني الله فداك " كخيطة وصل بينه وبينه، لإبقاء ذرة من الأمل في عودة الأمور إلى نصابها.

ويتابع هندسته في هذه الرسالة، في تسلسل رائع للأفكار والفقرات، للوصول إلى هدفه وهو تذكير صاحبه بعدم الغلو والتغالي على الناس. ومن ثم يطرح عليه أسئلة تستتكر مثل هذه الفعلية،

(1) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، رسالة ابن العميد إلى أحد إخوانه، ج3، ص10.

ويبرر ذلك بالمحافظة على صديقه وعلى أمل عودته إلى جادة الصواب. فيقول: " ولا عجب، فقد ينفجر الصخر بالماء الزلال، ويلين من هو أقسى منك قلباً فيعود إلى الوصال".

وتعطي هذه الرسالة للقارئ صفة من الصفات المحببة في الإنسان، وهي التجاوز عن أخطاء الأصدقاء، والحرص الشديد على المحافظة عليهم. هذه أبرز الأفكار التي تضمنتها الرسالة من حيث المضمون؛ ولكن من الضروري أن نلتفت إلى البناء والقولية التي جاءت عليها هذه الرسالة، فنرى ابن العميد كعادته، يتأنق في استخدام ألفاظه، ومحسناته البديعة؛ فابن العميد، كما يظهر لنا، يهتم باختيار الكلمات المتناسقة في الطول والقصر، فهو يزاوج في أكثر من موطن، ويمكن أن نغالي ونقول: أنه يهتم حتى باختيار الحرف.

ولو نظرنا إلى جملة نلمح ذلك جلياً، فمثلاً يقول: " دهرأ خوؤنا غدورا " و " زمانا خدوما غرورا"، وكذلك في عبارتي: " إلا ريث ما ينتزع " و " إلا ريث ما ينتجع"، وكذا الحال في: " ييدو خيره لمعا ثم ينقطع " و " يحلو ماؤه جرعاً ثم يمتنع". فهاتان خماسيتان من المزوجة والتقابل وزناً وتركيباً.

وحرص على الاهتمام بالتثنيات والمفردات، مثل: (حكمة و ظلمة)، (بلا انفراج ولا فراج)، (غفلاته وساعاته)، (شيمة مألوفة وسجية معروفة).

ولم تخلُ رسائل ابن العميد من السجع، إذ أصبح السجع سمة عامة، وهي الأبرز في رسائله. وهذه الرسالة من جملة الوسائل، فنرى السجع يغطي سائر فقرات الرسالة، ولكنه يُؤلّ في الفقرة الثانية منها، ويعود فيظهر جلياً في الفقرة الثالثة، ونلاحظ انه يمزج السجع بالأشياء الأخرى.

ومما أضفى عليها جمالاً، الترادف الجيد الذي أحسن في استعماله، فكانت كل لفظة تأتي في مكانها، وكأنها لا يمكن أن تستبدل بغيرها. فاستخدم دهرأ وزماناً، ينتزع ويرتجع، ينقطع ويمتنع، شيمة وسجية، يمنح ويهب. وجاء هذا الترادف كمؤكدات على ما يريده، دون تكرار للفظ الواحد أكثر من مرة في الرسالة، فتعطي ملأ أو ثقلاً على المتلقي.

وعند التنقيب في بحر المحسنات، تفيض لنا كنوز الطيات، مثل: (يمنح وينتزع)، (يهب ويرتجع)، (صلاح والفساد)، (أطويه وأنشره)، (زاد ونقص)، (النسيان والتذكر)، (اللين و القسوة).

والجناس، كما في: (خلة وخلاه)، (بعتي وبيع)، (أعرضت وإعراض)، (أطرحتي واطراح)، (نبذتني ونبذ)، (وطرحتي وطرّح)، (تتعجب وعجب).

وإذا ما استوضحنا عن البيان في هذه الرسالة، وجدنا شيئاً من المجاز والتشبيه غير المباشر. فمن المجاز، قال ابن العميد: "أشكو دهرأ ..."، فالشكوى لا تقدم ضد الدهر، وإنما ضد الإنسان الغادر الخدوع المغرور، وهذا الدهر ليس له خير أو ماء، وإنما هو المجاز في الاستخدام. وقال: "لا يمنح ما يمنح" وهذا تشخيص. كما جعل للدهر شيئاً وسجايًا مثل ما هو لدى الناس، وجعله يشفع ويعطي ويهدي ويحكم ويظلم. وهذا من التشخيص، وجعل له غفلات تختلس وساعات تسترق، وكل هذا طبيعة صامته، ثم تحويلها من أمور معنوية إلى أشياء مادية يمكن لمسها ونقلها واختلاصها واستراقها، وهذا تشخيص بلاغي. وجعل البلوى تطوى كما تطوى المزادة، وقال: "ظلمت الدهر" و "الزمته جرماً" فحوّله إلى إنسان مجرم وجان، وقال: "وبعتي" في مخاطبة صاحبه، والإنسان لا يباع، وهذه كناية عن الترك والقطيعة، وكذلك الحال في عبارات: (تلفظني من فيك) و(تمجّني من حلقك) و(محا النسيان صورته)، فالتشخيص معنوي، (يتفجر الصخر بالماء الزلال) و(يلين من هو أقسى منك قلباً)، أي يلين الإنسان الجاف المليء بالجفاء.

وهناك صور تخدم أفكار النص، ومنها: صورة اللمعان سريع الانقطاع، وصورة المزادة التي تطوى، ونبذ النواة، وطرّح القذاة، واللفظ من الفم أو الحلق، وتفجر الصخر بالماء الزلال. وهذا التشخيص وتلك الصور، إنما هي نابعة من العاطفة الصادقة التي هي صدى لأفكار المرسل، وهي بُرمتها صور خيالية غير متكلفة، كما أنها متجانسة متألّفة، وقد انتقاها ابن العميد من الواقع للتعبير عن تجربته، مما أثارت ألواناً من العواطف، مما دعاها أن تكون أكثر قدرة على التعبير. وخالصة القول في هذه الرسالة، أنها تحتوي على سمات منها:

- أ. وضوح المعاني، إذ إن القارئ يفهم المراد من الرسالة دون تكلف عناء الرجوع إلى المعجم، ونتج ذلك عن سهولة الألفاظ.
- ب. خلوّها من التكلف، إذ يلحظ القارئ أن الكتاب جاءت أفكاره وصياغته للجمل غير متكلفة.
- ج. اشتغالها على المحسنات البديعة، كالسجع والجناس والطباق وغيرها.
- د. العناية الدقيقة بانتقاء الألفاظ.

## رسالة إلى ابنه أبي الفتح يوصيه بأهل قزوين

"لقد وردتَ بلدًا عرفَ فيه أبوك، وسكنهُ طويلاً جدك، وهناكَ متحرمون بهما وبك، فلا تتغائب عن حقوقهم ولا تذهب عن الاعترافِ بواجبهم، وارعَ لهم ما سلفَ من خدمةِ سلفك، واحرص على تسكين الجماعةِ وتألفِ نفوس الكافة، واستعطف سلطانك على رعيتكَ بجهدك، واستعد ريةً فيهم، وأغثاهُ بهم بما تشرحهُ من حالهم؛ فإنك تجدُ في الصدق مجالاً وليس القومُ مختصينَ بالجناية، زعيمهم معروفٌ ومصدرُ الفسادِ معلوم، وإذا لم يقع على المختصِّ بالذنبِ ومثير الهيج عقابٌ ينهكه، فقد يجوزُ أن لا يلحقَ الضعيفُ منه ما يهلك ، وأنت تعلمُ ما أقولُ والله وليُّ معونتك. وقد عرفتَ ما رسمَ لك، وهو مما لا يعجبني خوضكَ فيه وقيامكَ به، فإني أحبُّ أن تكونَ وقدأ لرحمةٍ وسائقَ بركةٍ، وأن يكونَ شفيحُ من يعاقب ولا تعاقب، وتتلا في أمر من يصادر ولا تصادر، والسلام".<sup>(1)</sup>

### التحليل

لقد جاءت هذه الرسالة من ابن العميد إلى ابنه أبي الفتح بمثابة دستور أو وصية يخطها الأب لابنه، فهو يوصيه خيراً بأهل قزوين، وهي المنطقة التي وجهه إليها ركن الدولة، فيذكر ابن العميد ابنه أبا الفتح بأن قزوين بلد عرف فيها أبوه، وأقام بها جده، فمن الواجب عليه أن يرعى الله فيهم ولا يسئ إليهم. ويذكر ابن العميد ابنه بسيرته غير المحمودة، ويتمنى منه أن يتجنبها؛ لأنه الآن قائد مسؤول . فينبغي أن يرتفع بأخلاقه ويسمو بنفسه عن الدنيا .

هذه هي أبرز الأفكار التي تضمنتها هذه القطعة النثرية القصيرة، أما من الناحية الفنية فيمكننا أن نلاحظ عدة ملاحظات تميز هذه الرسالة. ولعل من أهمها انخفاض المستوى الفني في هذه القطعة؛ وقد يعود ذلك للعلاقة السيئة بين ابن العميد وولده أبي الفتح. فنجد أنها خلت من الطباق والجناس وهذان محسنان قلما تخلو منهما رسائل ابن العميد، وأيضاً لم يظهر المجاز فيها بشكل واضح إلا في مواضع بسيطة من الرسالة، منها حينما طلب منه أن يكون وقد رحمة وسائق بركة، فشبه الرحمة بنار توقد لتنتير، ويريد من ابنه أن يكون زيتاً لهذا المصباح، وأن يكون هو مصدر البركة إلى الناس . هذه هي أبرز المواطن الذي استخدم فيها المجاز.

(1) التدوين في أخبار قزوين، ج3، ص 405.

وكعادة ابن العميد فإن السجع وتمائل الجمل هما البساط الذي يفتersh سائر رسائله، ومن أمثلة السجع هنا: (حقوقهم، واجباتهم)، (رحمة، بركة)، (يُعاقب، يُعاقب)، (يُصادر، تصادر).

ومما يميز هذه الرسالة أنها:

أ. خلت من البسطة والمقدمة. وأما المقدمة فقلما خلت رسائله منها، وكانت تتميز بارتفاع مستواها الفني حسب مكانة المخاطب.

ب. دخوله في الموضوع مباشرة، وهو النصح والتذكير بان هناك إرث أو ميراث في هذه البلد من أيام جده وحتى أيامه.

ج. احتوت هذه الرسالة على خاتمة بتذكيره ولده فيما يكره وإرشاده إلى ما يجب.

وهناك سمة غالبية على جل الرسائل، وهي عدم التكلف والصنعة وسهولة الألفاظ .

رسائله إلى ابن أبي عبد الله الطبري<sup>(1)</sup>

### الرسالة الأولى

"وقفت على ما وصفت من برّ مولانا الأمير لك، وثوّره بالفضل عليك، وإظهار جميل رأيه فيك، وما أنزله من عارفةٍ لديك؛ وليس العجبُ أن يتناهى مثله في الكرم إلى أبعد غايه، وإنما العجبُ أن يقصرَ شيءٌ من مساعيه عن نيل المجدِ كله، وحيازة الفضل بأجمعه؛ وقد رجوتُ أن يكونَ ما يغرسه من صنيعَةٍ عندك أجدرَ غرس بالزكاء، وأضمنه للزيغ والنماء؛ فرع ذلك واركب في الخدمة طريقة تُبعدك عن الملال، وتوسط في الحضور بين الإكثار والإقلال، ولا تسترسلُ إلى حسن القبول كل الاسترسال؛ فلأن تدعى من بعيدٍ خيرٌ من أن تقصى من قريب، وليكن كلامك جواباً تتحرزُ فيه من الخطل ومن الإسهاب، ولا يعجبك تأتي كلمة محمودةٌ فليجُ بك الأطنابُ توقعاً لمثلها؛ فربما هدمت ما بنته الأولى، وبضاعتك في الشرفِ مزجاة، وبالعقل يزُمُ اللسان، ويرامُ السداد، فلا يستفركَ طربُ الكلام على ما يفسدُ تميزك؛ والشفاعةُ تعرض لها فإنها مخلقةٌ للجاه؛ فإن اضطررت إليها فلا

(1) رجعت إلى مراجع متعددة. منها كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي، ولم استطع أن أجد ترجمه لأبي عبد الله الطبري صديق ابن العميد.

تهجم عليها حتى تعرفَ موقعها، وتحصلَ وزنها، وتطالعَ موضعها؛ فإن وجدتَ النفسَ بالإجابةِ سمحةً، وإلى الإسعافِ هشةً، فأظهرَ مافي نفسكَ غيرَ محقق، ولا توهم أن عليكَ في الردِّ ما يوحشك، ولا في المنع ما يغيظك، وليكن انطلاقُ وجهكَ إذا دُفعتَ عن حاجتكَ أكثرَ منه عند نجاحها على يدك، ليخفَّ كلامك، ولا يتقل على سامعةٍ منك، أقولُ ما أقول غيرَ واعظٍ ولا مرشد، فقد جملَّ اللهُ خصالك، وحسنَ خلالك، وفضلكَ في ذلك كله؛ لكي أنبأَ المشارك لك، وأعلمُ أن للذكرى موضعاً منك لطيفاً<sup>(1)</sup>.

### التحليل:

جاءت هذه الرسالة بمثابة دستور أو منهج يرسمه ابن العميد لصديقه أبي عبد الله الطبري، في كيفية التعامل مع الأمير والعمل معه. فقد جاء فيها نصائح وإرشادات إن اتبعها المخاطب لا يمله الأمير، ولا يتضجر منه. وبدأ هذا بذكر مكانته عند الأمير، إذ أوضح أن له مكانة عالية عنده، وتمنى منه أن يحافظ عليها. فقال "وقفت على ما وصفت من برِّ مولانا الأمير لك، وتوفره بالفضل عليك، وإظهار جميل رأيه فيك"، فهو يريد منه أن يحافظ على القمة لأن المحافظة عليها أصعب من الوصول إليها. وبعد ذلك يمضي في إسداء بعض النصائح، علماً بتفعه في حياته العملية، ولاسيما مع الأمير. ويذكر منها:

1. أن يكون حضوره مجلس الأمير متوسطاً، لا مكثرأ ولا مقلأ، فقال: "الخدمة طريقة تبعذك من الملأ، وتوسطك في الحضور بين الإكثار والإقلال".
2. عدم الاسترسال عند القبول، لأنه أن يدعوك الناس إليهم خير من أن يقصوك، فقال: "ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال؛ فلأن تدعى من بعيد خيرٌ من أن تقصى من قريب".
3. انتقاء الكلام والردود المناسبة على قدر ما تستحق المخاطبة. فقال: " وليكن كلامك جواباً تتحرز فيه من الخطل ومن الإسهاب"، أي أنه خير الكلام ما قل ودل؛ فالإسهاب والإطناب قد يبعثان الملأ في نفس المتلقي، فيشيع بوجهه عن المتكلم.

(1) القيرواني، إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، ج 40، ص 1064-1065.



4. عدم الغرور بحلاوة اللسان، الأمر الذي قد يُذهب التميز والتفكر، فيقول: " فلا يستفزك طرب الكلام على ما يفسد تميزك". وذلك لأن الإنسان بطبيعته الغريزية، حينما يمدح، يأخذ بالإسهاب، فقد تتطلق منه كلمة يكون فيها زلل أو خطأ، فمن كثر كلامه كثر سقطه.
5. أن يسود لديك خلق الشفاعة، فهي مكرمة للجاه، ولكن بمنطق وحكمة. فيقول: " والشفاعة تعرض لها فإنها مخلقة للجاه " .

حقاً إن هذه النصائح تصلح أن تكون منهاج حياة يختطه المرء في حياته.

ويختم ابن العميد رسالته بالتذكير بمكانة ابن أبي عبد الله الطبري المرتفعة، وأخلاقه التي ليست معرضاً للكلام، وكأنه يعتذر منه، بعد هذه النصائح، بطريقة غير مباشرة، فيقول له: "إنما نصحي بمثابة ذكرى"، ويؤكد بأنه على يقين أن نفس ابن أبي عبد الله الطبري من النفوس التي تتقبل الذكرى ولا تضجر منها، فيقول: " فقد جمل الله خصالك، وحسن خلالك، وفضلك في ذلك كله".

هذا هو المضمون العام الذي تمخّضت عنه الرسالة من معنى، ولكن الباحث لم يتوقف عند الناحية المعنوية، بل يغوص في الأعماق باحثاً عن الأساسات المتينة التي أنشأت لنا هذا البناء المتميز. فبناء ابن العميد عادة ما يمتاز بالسجع وتوازن الجمل، وهي اللوحة الفسيفسائية التي تزين النص بموسيقاها وزخرفها. ولننظر إلى بعض هذه القطع: (الزكاء، النماء)، (موقعها، موضعها)، (يوحشك، يغيظك)، (خصالك، خالك) .

وبعد النظر إلى القطع الفسيفسائية، لا بد من النظر إلى النور الخافت الذي يتلألأ في ثنايا هذا النص، كإضاءة بسيطة تضيء جمالاً على بناء واسع. وهذه الأضواء البسيطة نقصد بها الجناس، إذ لم يكثر في هذا النص، إلا أن إضاءته البسيطة، جاءت على قدر مكانها وموضعها، ونلاحظ مثلاً: (موقعها، موضعها)، (خصالك، خالك) .

ولا يخلو الأمر من شموع الطباق، فقد نلمح في النص أكثر من شمعة له، منها: (لك، عليك)، (العجب، العجب)، (الإكثار، الإقلال)، (بعيد، قريب)، (يخف، يتقل)، (أقول، ما أقول) .

وأضفت أزهار الترادف على المكان بهجة ووضوحاً وترسيخاً للرائحة الشجية في نفس المتلقي، وإن بحثنا عن ورودها، فإنها ليست بالقليلة، فمنها: (كله، أجمعه)، (نيل، حيازة)، (الزكاء، الريع، النماء)، (الإسهاب، الإطناب)، (موقعها، موضعها)، (واعظ، مرشد)، (خصالك، خلاك) .

ولم يخلُ هذا البناء من فوانيس المجاز، التي تظهر لك مشعلة عند انقطاع الأنوار الأخرى، أو الانتهاء منها، فمثلاً نراه يشبه الكلام بعامل البناء الذي يبني، ويشبه كلمة أخرى بعامل هدم يهدم ما بنته أيدي زميلة أخرى.

وجاء مدحه بطريقة هي غاية في الروعة، فشبه ذبوع صيته ومعرفة مكانة شرفه العالية بين الناس بالبضاعة النفيسة المنتشرة، التي يعرفها القاصي والداني، ويتمنى اقتناءها.

وبعد الإطلاع على هذه الرسالة فإنني أخرج بالنتائج التالية:

1. بدأ ابن العميد رسالته إلى أبي عبد الله الطبري مباشرة دون بسملة أو تحميد أو تقديم، على غير ما كنا نلاحظه فب رسائله الأخرى؛ ربما يكون ذلك لقرب أبي عبد الله الطبري من ابن العميد وللصداقة الوثيقة بينهما، تجعله يخاطبه مباشرة دون مقدمات.
2. يظهر من ترسل ابن العميد لأبي عبد الله الطبري، أن لأبي عبد الله الطبري مكانة خاصة ومنزلة معينة عند ابن العميد، حتى حصل على كل هذه النصائح والإرشادات والتوصيات، أو العتاب واللوم في بعضها كما سنرى.
3. لم يحدد ابن العميد من هو الأمير المقصود في مطلع الرسالة، وطبعاً هذا الأمير كان معروفاً لدى ابن العميد وأبي عبد الله الطبري.
4. في هذه الرسالة يمدح ابن العميد الأمير ويطلب من صاحبه أن يلزم طاعته وحسن صحبته.
5. ومن بين الوصايا كذلك، والتي وصى بها ابن العميد صاحبه أبا عبد الله الطبري:
  - قوله: عدم الإكثار من ملازمة الأمير وتحكيم العقل في الأمور.
  - قوله: عدم السخط و الغضب إذا لم يلب الأمير مطلبك.
6. يقرر ابن العميد -في تواضع- أن ما يقوله لصاحبه هو مجرد تنبيه لطيف، وتذكير لخصال هي موجودة أصلاً عنده.

7. من السجع الذي أورده ابن العميد مع حسن الموازنة بين هذه الجمل قصيرها وطويلها:

- من بر مولانا الأمير لك، وتوفره بالفضل عليك وإظهار جميل رأيه فيك، وما أنزله من عارف لديك.
- أجدر غرس بالزكاء، وأضمنه للريح والنماء .
- حتى تعرف موقعها، وتحصل وزنها، وتطالع موضعها.
- في السرود وما يوحشك، ولا في المنع ما يغيظك.
- فقد جمل الله خصالك، وحسن خلاك.

8. أما الطباق فقد ورد في جمل متفرقة منه:

- لك، عليك.
- ليس العجب، العجب.
- الإكثار، الإقلال.
- بعيد، قليل.
- يخف، يثقل.
- أقول، ما أقول.

9. وأما الترادف فقد ظهر فيما يلي:

- كله، أجمعه.
- نيل، حيازه .
- الزكاء، الريع، النماء.
- الإسهاب، الأطناب.
- موقعنا، موضعنا.
- واعظ، مرشد.
- \*خصالك، خلاك.

## الرسالة الثانية

"سألني عن شغفني وجدني به ، وشغفي حبي له، وزعمتُ أنني لو شئتُ لذهلتُ عنه ،ولو أردتُ لاعتضتُ منه زعماً، لعمرُ أبيك، ليسَ بمزعم كيف أسلوا عنه، وأنا أراه، ، وأنسأهُ وهو لي باتجاه؛ هو أغلبُ علي، وأقربُ إلي ، من أن يرخي لي عناني، أو يخليني واختياري، بعدَ اختلاطي بمسلكه ،وانخراطي في سلكه، وبعد أن ناط حبةً بقلبي ناط، وساطهُ بدمي ساططاً، وهو جار مجرى الروح في الأعضاء، متنسماً تنسَمَ روح الهواء؛ إن ذهبتُ عنه رجعتُ إليه، وإن هربتُ منه وقعتُ عليه، وما أحبُّ السوءَ عنه مع هناته، وما أوثرُ الخلوَّ منه مع ملاته؛ هذا على أنه إن أقبلَ عليَّ بهتني إقباله، وإن أعرضَ عني لم يطرقتني خياله، يبعُدُ عني مثاله، ويقربُ من غيري نواله، ويردُّ عيني خاسئهُ، ويثني يدي خاليه، وقد بسطَ آفاتِ العيون المقلبه وصدقَ مرامي الظنون الكاذبة، وصلهُ ينذرُ بصدده، وقربه يؤذُنُ ببعده، يدني عندما ينزح، ويأسو مثلَ ما يجرح، محالتهُ أحوال، وختلتهُ خلال، وحكمهُ سجال، الحسنُ في عوارفه، والجمالُ من منائحه، والبهاءُ من أصوله وصفاته، والسناءُ من نعوتِهِ وسماته، اسمه مطابقٌ لمعناه، وفحواه مطابقٌ لنحواه، يتشابهُ حالاه، ويتضارعُ قطاره، من حيثُ تتساه يستدير (1) ."

### التحليل:

يبدو أن العلاقة بين ابن أبي عبد الله والطبري والأستاذ الرئيس علاقة دامت مدة طويلة، إذ تبادلوا فيها الكتب والرسائل. وما رسالة ابن العميد هذه إلا جواب لسؤال من ابن أبي عبد الله الطبري، وجاءت هذه الرسالة من صديق لم يصرِّح به ابن العميد، ولا ندري ما هو الغرض من إخفائه؛ هل هو غرض التعمية، أم غرض آخر، ليس من السهل على احد أن يرجح هذا أو ذلك، لأن أقدر من يحددها هو صاحب النص، وما الذي أراده هذا بقي من أسرار نفسه. ولكن نستطيع أن نجزم بأن ابن أبي عبد الله الطبري كان عارفاً له، متصلاً به بطريقة أو بأخرى، وإلا ما كان ابن العميد يرسل هذه الرسالة ويفيض بها مشاعره إلى هذا الشخص، وتعلقه به هذا التعلق، فقد عدّه بمثابة الهواء الذي يستنشقه عند التنفس، وبالغ وجعله بمثابة الروح، فإذا ذهبت تكاد روحه أن تذهب، فقال: " وهو جار مجرى الروح في الأعضاء، متنسَمَ تنسَمَ الهواء "

(1) القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ج 4، دار الجيل، ص 1065 - 1066 .

هذا ما أمكننا الوقوف عنده من ناحية المعنى، والغرض المراد من الرسالة. وربما كان الباحثون يتمنون أن يصرح ابن العميد عن هذا الصديق الذي كمال عليه كل هذه الصفات .

وبعد فلنعد إلى بناء ابن العميد الفني بزخرفته ونوره وشموعه وفوانيسه، فزخرفة السجع تظهر جلية في أكثر من موضع، نذكر منها: (لنهلته عنه، لاعتضت منه)، (أراه، اتجاه)، (نائط، سائط) . وجاءت هذه القطع بمثابة فواصل موسيقية كدأبه في أغلب رسائله، ويخفت ضوء الجناس في الرسالة الثانية بشكل أوضح، إذ لا نكاد نرى بريقه إلا في موضع أو موضعين من الرسالة، مثل: (مسلكه، سلكه)، (نائط، سائط).

وشمعة الطباقي التي اشتعلت في الرسالة الأولى لا تتطفئ في الثانية، فنحس برونقها في أكثر من موضع، منها: (ذهبت، رجعت)، (أقبل عليّ، أعرض عني)، (قربه، بعده)، (يأسو، يجرح)، (وصله، صدّه) .

وتفوح رائحة أزهار الترادف كأنها عطور نشرها هواء عليل في حديقة بهية، ونشم رائحتها في أكثر من باقة، منها: (أسلو، أنساه)، (خلال، سجال)، (مطابق، موافق)، (يتشابه، يتضارع) .

وإذا تبخرنا نراقب نور فانوس المجاز، نرى أن هذه الرسالة يصعب فيها التحدث عن موضع وترك آخر. فيرى الباحث أن الرسالة جاءت عبارة عن مدح مجازي لصديق ابن العميد، فتارة يشبهه بالروح وأخرى بالهواء، وثالثة بالضوء والقمر اللذين يرسلان النور للبشرية .

من خلال التحليل المستفيض لهذه القطعة يظهر لنا فيها جملة من الملحوظات منها:

1. هذه الرسالة تشبه الرسائل السابقة، من حيث البدء والختام والدخول مباشرة في الموضوع.
2. هذه الرسالة جوابية لرسالة من أبي عبد الله الطبري أو ردٍ على سؤال منه.
3. لم يبين لنا ابن العميد ما (أو من) الذي شغفه حبا وأذهله، ولا يستطيع سلوه أو نسيانه، وبقي طوال الرسالة يتحدث عن صفاته دون أن يصرح به. وأنا أرى أنه صديقه أبي عبد الله الطبري لأن الرسالة مثبتة له.

4. لعل عدم التصريح عن هذا الشيء؛ إما لأنه يخشى أن يعرفه الناس، أو للتعمية على الآخرين بقصد الإثارة الفكرية، أو غير ذلك لدى أبي عبد الله الطبري.

5. لقد امتلأت هذه الرسالة (وكعادة ابن العميد) في أسلوبه بالسجع القصير الجميل، وبالطباق والمترادفات وغير ذلك من أسلوبه التتميق و التزين، فمن سجعه المتوازن في هذا المقام قوله :

- عن شغفني وجدي به، وشغفني حبي له .
- . . . لذهبت عنه، . . . لاعتضت منه .
- وأنا أراه، . . . نائط، . . . سائط، وهكذا .

6. ومن الطباق الذي أورده :

- ذهبت، رجعت.
- أقبل علي، أعراض عني.
- قربه، بعده.
- يأسو، يجرح.

7. ومن جميل المترادفات يورد:

- أسلو، أنساه.
- خلال، سجايا.
- الحسن في عوارفه، الجمال في منائحه، البهاء من أصوله وصفاته ، والسناء من نعمته وسماته.
- مطابق، وافق.
- يتشابه، تضارع.

## الرسالة الثالثة

"كتابي وأنا بحال لو لم ينغص منها الشوق إليك، ولم يرنق صفوها النزاعُ نحوك، لعددتها من الأحوال الجميلة، وأعددتُ حظي منها في النعم الجلييلة، فقد جمعتُ فيها بين سلامةٍ عامة، ونعمةٍ تامة، وحظيتُ منها في جسمي بصلاح وفي سعبي بنجاح، لكن ما بقيَ أن يصفو لي عيشاً مع بعدي عنك، ويخلو منك، ويسوغ لي مطعمٌ ومشربٌ مع انفرادي دونك، وكيفَ أطمعُ في ذلكَ وأنتَ جزءٌ من نفسي، وناظمٌ لشملي أنسي، وقد حرمتُ رؤيتك، وعدمتُ مشاهدتك، وهل تسكنُ نفسٌ متشعبة ذاتُ انسقام، وينفعُ أنسٌ ميتٌ بلا نظام ؟ وقد قرأتُ كتابتكَ -جعلني الله تعالى فداءك- فامتألتُ سروراً بملاحظةِ خطك، وتأملُ تصرفك في لفظك، وما أقرضها فكلُّ خصالكَ مقرطٌ عندي، وما امدحها فكل أمركَ ممدوحٌ في ضميري وعقدي، وأرجو أن تكونَ حقيقةً أمركَ موافقةً لتقديري فيك، فإن كانَ كذلكَ وإلا فقد غطى هواكَ ومما ألقى على بصري ".<sup>(1)</sup>

### التحليل:

يبدو أن العلاقة بين ابن العميد وابن أبي عبد الله الطبري علاقة صداقة متينة تربط بينهما، فجاءت هذه الرسالة الاخوانية بمثابة جواب على رسالة وردت إليه، فعبرَ فيها عن شوقه وحبهِ الشديد وتلوعه بابن أبي عبد الله الطبري. وإنه ليسعده منه بأقل شيء، وهو خطُّ مكتوب في رسالة. وإنه يظن بابن أبي عبد الله الظنون الحسنة، وسيكون مخذولاً إذا خولف ظنه، فهو يراه جزءاً من النفس، أي لا تصفو الحياة من غيره، ولا يطيب لها طعم دونه، وإنه سبب سعادة إليه، فبوجوده تأنس نفس ابن العميد، وتهناً باله. ويستطرد ابن العميد في التعبير عن حبه وولعه بابن أبي عبد الله بأن يقول: "جعلني الله فداك"، أي جعل نفسه فداءً لصاحبه، وهذا نتج عن غاية السرور التي أصابت نفسه عندما وصل كتاب ابن أبي عبد الله الطبري.

(1) القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، زهر الأداب، ط2، ج 4، شرح: د. زكي مبارك، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ص 193-194. الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأداب، مؤسسة المعارف، ص 152.

ويصف ابن العميد حاله بالإنسان الذي يعجز لسانه عن الوصف، لأن صاحبه في نظره فوق الوصف والمدح، فيقول: " وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندي، وما امدحها فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي ".

هذه هي الغاية المرجوة من الرسالة، ولا يمكننا بأي حال من الأحوال، أن نفصل الناحية البنائية التي تحلّي فيها الفن والمحسنات في أبهى الصور.

فارتسمت صورة السجع بيد فنان نشقها ووازن بين جملها ليضفي عليها الجمال والانسباب، ومن أمثلة ذلك: (الجميلة، الجلييلة)، (عامّة، تامّة)، (نفسية، أنسية)، (انقسام، نظام)، (حظك، لفظك)، (عندي، عقدي).

وكعادة ابن العميد، فعلى قصر رسالته، لم تكد تخلو من محسنٍ بديعي، ومن هذه المحسنات "الجناس"، الذي لمحناه في غير موضع من هذه القطعة الفنية، ومن أمثلته: (الجميلة، الجلييلة)، (عامّة، تامّة)، (عندي، عقدي).

وفي كثير من الأحيان، يكون الإطناب مملاً يبعث على السأم في نفس القارئ، إلا أن ابن العميد، كان إطنابه وترادفه يخدمان المعنى ويرسخانه ويبعثان على البهجة والتحفز في نفس القارئ، إذ إن القارئ يكتشف في كل لحظة من القراءة معنى جديد يخدم الفكرة. ومن أمثلة الترادف: (مطعم، مشرب)، (ينغص، يرتق)، (إليك، نحوك)، (حرمت، عدمت)، (رؤيتك، مشاهدتك)، (ملاحظة، تأمل)، (أقرظهما، أمدحها).

ولنعرج لحظة لناخذ أمثلة من بحر المجاز الذي ما انفك ابن العميد يستخدمه في جلّ الرسائل، ومن أمثلته هنا أن شبه النفس بالشيء الذي يتشعب وينقسم نتيجة لشيء أصابه أو لفعل حلّ به فجعله منشعباً، أو كضوء أو أشعة تغلغت في جسم شفاف فقسمته قطعاً مضيئة منشعبة، وشبه نفسه والفرحة التي حلت به حينما وصل كتاب ابن أبي عبد الله الطبري، وشبه السرور بالشراب يشفي الظمأ، فقال: "امتألتُ سروراً، وكأنه شرب حتى يروي".

تعتبر هذه القطعة - رغم قصرها - نموذجاً أدبياً يعبر بوضوح عن أسلوب وفن كاتبه. فقد برع في التعبير عن شوقه وكأنه عاشق متيم له. ومن الملحوظات التي يمكن رصدها لهذه الرسالة:



1. كثرة الاستشهاد بها في مواضع مختلفة في الأدب العربي من خلال المؤلفات والدراسات، كدليل على بديع ترسل ابن العميد.
2. هذه الرسالة الجوابية كانت من ابن العميد إلى صاحبه أبي عبد الله الطبري، تظهر مدى متانة العلاقة بين ابن العميد وصاحبه .
3. تعتبر رسائل ابن العميد بشكل عام، والخلاصة منها بأبي عبد الله الطبري من الرسائل الإخوانية والأدبية، والتي تكشف عن المشاعر الصادقة بين ابن العميد وصاحبه، والتي تظهر كذلك مدى تألق ابن العميد في صياغة ألفاظ مختارة معبرة مناسبة، وبعبارات مزينة بالمحسنات اللفظية المنتشرة في كافة أرجاء الرسائل.
4. وتعد هذه الرسالة على غرار غيرها من الرسائل وعلى الرغم من قصرها إلا أنها تظهر أموراً كثيرة منها: الشوق الشديد من ابن العميد لصاحبه، وحُسن الصحبة بينهما لدرجة أن ابن العميد إذا لم ير صاحبه، فإن ذلك سيؤثر سلباً على نفسيته وحالته الصحية، حتى وصل أمره أن يدعو الله متمنياً بأن يكون فداء له ويكفيه سروراً أن يرى خطه .
5. كما نلمس كثرة السجع في رسالته هذه، مع الحرص على توازن العبارات بشكل موسيقي متناغم، كما أكثر من المترادفات في الكلمات والجمل، بالإضافة إلى الجناس، مثل: (الجميلة ، الجليلة) ، (عامّة ، تامّة) .
6. ومما يجدر ذكره أن كثرة المترادفات في هذه الرسالة تسير في مجال الإطناب مرغوب غير ممل، وذلك أحسن عناصر المحسنات التي أوردتها، ولحسن التوازن بين العبارات.

### الرسالة الرابعة

"وصلَ كتابك فصادفني قريبُ عهدٍ بانطلاق، من عنتِ الفراق، وأوقفني مستريحُ الأعضاء والجوانح من حرِّ الاشتياق، فإن الدهرَ جرى على حكمه المألوفِ في تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروفِ في تبديل الأبدال، واعتقني من مختالتك عتقاً لا تستحقُّ به ولاء، وأبراني من عهدتك براءةً لا تستوجبُ معها دركاً ولا استثناء، ونزعَ من عنقي ربةَ الذل في إخائك بيدي جفاءك، ورشَّ عليَّ ما كان يحتدمُ في ضميري من نيران الشوق ماءَ السلو، وشنَّ عليَّ ما كان يلتهبُ في صدري من الوجد ماءَ اليأس، ومسحَ أعشارَ قلبي قلامَ فطورها بجميل الصبر، وشعبَ أفلاذَ كبدي فلاحمَ صدوعها بحسن العزاء، وتغلغلَ في مسالكِ أنفاسي فعوضَ نفسي من النزاعِ إليك نزوعاً عنك، ومن الذهابِ إليك

رجوعاً دونك، وكشفَ عن عيني ضباباتِ ما ألقاهُ الهوى على بصري، ورفعَ عنها غياباتِ ما سدلهُ الشكُّ دونَ نظري، حتى حدرَ النقابَ على صفحاتِ شيمك، وسفرَ عن وجوهِ خليقتك؛ فلم أجد إلا منكراً، ولم ألقَ إلا مستكراً، فوليتُ منها فراراً، ومُلئتُ منها رعباً، فاذهب فقد ألقيتَ حبلَكَ على غاربك، ورددتَ إليك ذميمةً عهدك<sup>(1)</sup>.

وفي فصلٍ من هذه الرسالة يقول:

"وأما عذرك الذي رمتُ بسطه فانقبض، وحاولتَ تمهيدهُ وتقريرهُ فاستوفزَ وأعرض، ورفعتَ بضعةً فانخفض، فقد وردَ ولقيتهُ بوجهٍ يؤثّرُ قبولهُ على رده، وتركيتُهُ على جرحه، فلم يفِ بما بذلتُهُ لك من نفسه، ولميقم عند ظنك به، أنىَّ وقد غطى التذمُّ وجهه، ولفَّ الحياءُ رأسه، وغضَّ الخجلُ طرفه؛ فلم تتمكن من استكشافه، وولىَّ فلن تقدر على إيقافه، ومضى يعبرُ في فضول ما يغشاهُ من كربٍ حتى سقط، فقلنا: لليدِ والفم؛ ثم أمرنا بمطالعةٍ ما صحبهُ فلم أجدهُ إلا تأبطُ شراً، أو تحملَ وزراً "

وقوله هذا محلول من عقد نظمه إذ يقول:

أقرّ السلام على الأمير وقل له	قدك اتّيب أربيتَ في الغواء
أنت الذي شنت شمل مسرتي	وقدحت نار الشوق في أحشائي
ورضيت بالثمن اليسير معوضة	مني، فهلا بعثني بغلاء
وسألتك العتبي فلمترني لها	أهلاً، فجدت بعذرةٍ شوها
وردت مموهة فلم يرفع لها	طرف، ولم ترزق من الإصغاء
وأعار منطقتها التذم سكتة	فتراجعت تمشي على استحياء
لم تشف من كمدٍ، ولم تبرد عل	كبدٍ، ولم تسمح جوانب داء

(1) القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب، ج 3، ص: 875-876.

دوات جوى بجوى وليس بحازم      من يستكف النار بالحلفاء  
 من يشف من كمد بأخر مثله      أثرت جوارحهُ على الأدواء " (1)

### التحليل:

وفي الرسالة الرابعة هذه لابن العميد، والمرسلة إلى صديقه أبي عبد الله الطبري، والتي أوردتها القبرواني في زهر الآداب على فصلين، حيث خرجت من الفصل بالنتائج التالية:

1. أعلن ابن العميد في مستهل رسالته أنه قد وصله كتاب صديقه في وقت يعاني فيه مشقة الفراق .
2. ثم يتطرق إلى الحديث عن الدهر ودورانه وتبدله .
3. كما بين النتائج النفسية التي أثرت على ابن العميد من جراء وصول هذا الكتاب.

وفي الفصل الثاني من الرسالة، يبين ابن العميد لصاحبه: أن الذي عرضه أبو عبد الله الطبري لا يروق لابن العميد ويسبب له النفور، ويحاول بعد ذلك تفسير هذا الموقف بقصيدة من شعره.

ويبدو السجع واضحاً في هذه الرسالة بجزأيها، مع بعض مواقف الطباق والترادف والتصويرات الفنية الجميلة، على عادة ابن العميد في نثره وشعره.

والإطناب واضح في هذه الرسالة، وكان بالإمكان أن يعبر عن المقصود من خلال فقرة أو فقرتين على الأكثر، بما في ذلك الشعر.

قد يعجب القارئ لمثل هذه الرسائل لمدى العلاقة الحميمة التي تربط ابن العميد بابن أبي عبد الله الطبري، وما سر هذا التعلق الذي يربطهما، وكم كنا نود لو أن كتب التراجم أوردت تفصيلاً للعلاقة القائمة بينهما. وان الباحث إذ يقول هذا الكلام، لم يقله جُزافاً أو اعتباطاً، فالمتأمل في رسائل ابن العميد إلى ابن أبي عبد الله يرى هذا بشكل جليّ، وهذه الرسالة جاءت على لسانه يشكو فيها مرارة الفراق، وانقطاع الرسائل والأخبار. وإنه إذ فرح كثيراً عند وصول كتاب من صاحبه، يمضي

(1) القبرواني، إبراهيم بن علي الحصري، 2001، زهر الآداب، شرحه وضبطه صلاح الدين الهوازي، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية: بيروت، ج 3، ص 264-265.

ويتحدث عن الدهر، ويصور لصاحبه مرارة هذا الانقطاع والظروف النفسية التي حلت به نتيجة لذلك. ويعرض في فصل لاحق العذر الذي قدمه له ابن أبي عبد الله الطبري، وعدم قبول نفس ابن العميد لهذا العذر. ويسترسل ابن العميد في توضيح هذا المعنى، فيصف العذر وعدم قبوله تارةً تأبط شراً، وتارةً بالغمام التي ليس لها عذر بأن تسقط المطر، وغير ذلك من الصفات. ويشبهه أيضاً بالإنسان الذي يغطي وجهه و رأسه من الحياء عند فعله يخل منها ويلقي صاحبها.

هذه هي العبارات التي أطلقها ابن العميد في وصف العذر، نرى أن جلها جاء على سبيل المجاز، فجاء في تشبيهات جميلة تسعد بها النفوس.

واستمر في استطراده وإطنابه، بأن اتبع هذه الرسالة قطعة شعرية جميلة تعبر عن ذلك، وعن عدم قبول العذر، وعن عدم قناعته بهذه الرسالة التي يصفها ابن العميد في الأبيات بأنها لا تشفي من داء، ولا تبرد نفساً، ولا يقبلها عقل، فكأنه يريد أن يقول: إن هذا عذر سخيف غير مقبول.

وجاءت في هذه القطع الفنون على اختلافها، فقد تحدثنا عن المجاز في عرضنا لمعنى الرسالة، وسنشرع الآن في إظهار بقية الفنون وجعلها تطفو على السطح.

وكعادة الباحث في تحليله، يبدأ في التنقيب عن السجع والتوازن، فيجد منه الكثير في كل مرة، ومن أمثله هنا: (انطلاق، الفراق، الاشتياق)، (الأحوال، الإبدال)، (ولاء، استثناء)، (بصري، نظري)، (غاربك، عهدك)، (انقبض، أعرض، انخفض)، (وجهه، رأسه، طرفه)، (استكشافه، إيقافه).

ومن الملاحظ أن ابن العميد لم يعتن بالجناس في هذه الرسالة، لأنه كان مهتماً بتأكيد وترسيخ فكرته عن طريق الإكثار من الترادف والإطناب، الذي نرى أنه أكثر فيه إلى حد ما هذه المرة. إذ من الممكن أن يعبر عن مثل هذا المعنى بفقرة واحدة، أو فقرتين على الأكثر، ومن أمثلة الترادف: (تحويل، تبديل)، (الأحوال، الإبدال)، (أعتقني، ابرأني)، (الوجد، الشوق)، (الصبر، السلو)، (كشف، رفع)، (أجد، ألقى)، (غطى، لف)، (ولى، مضى)، (نظري، بصري).

أما الطباق، فقد كان حظه أوفر من الجناس، ولكن لم يكن بالكثير، إذ جاء في مواضع بسيطة منها: (إليك، عنك)، (الذهاب، رجوعاً)، (على، دون).

نلاحظ أن ابن العميد يسترسل ويستطرد في رسائله الإخوانية، ويبدع في المجاز والتشبيهات، وربما يعبر هذا عن متانة العلاقة بين الاثنين.

### الرسالة الخامسة

"أخاطبُ الشيخَ سيدي - أطلَّ اللهُ بقاءه - مخاطبةً مُخرجَ يرومُ الترويحَ عن قلبه، ويريع<sup>(1)</sup> لتفريح من كربيه؛ فأكتبه مكاتبةً مصدر، يريدُ أن ينفثَ بعضَ ما به، ويخففَ الشكوى من أوصابه، ولو بقيتُ في التصبر بقيةً لسكتَ، ولو وجدتُ في أثناءٍ وجدي مخرجةً يتحللها تجلُدُ لأمسكتُ؛ فقديمًا لبستُ الصديقَ على علاته، وصفحْتُ له عن هنائه، ولكني مغلوبٌ على العزاء ، مأخوذةً عن عادتي في الإغضاء ، فقد سلَّ من جفائك ما تركَ احتمالي جفاء، وذهبَ من نفسي من ظلمك ما أعزفَ حلمي فجعله هباء، وتوالى عليَّ من قبح فعلك في هجرٍ يستمرُّ على نسق، وصدَّ مطردٍ متنسق، ما لو فضَّ على الورى، وأفيضَ على البشر لامتلات منه صدورهم ، فهل أقدرُ على ألا أقول، وهل نكلك إلى مراعاتك، وهل نشكوك إلى الدهر حليفك إلى الإضرار، وعقيدك إلى الإفساد<sup>(2)</sup>، وأشكوه إليك، فإنكما وإن كنتما في قطيعة الصديق رضيعي لبان، وفي استيطاءٍ مركبِ العقوق شريكِ عنان، فإنه قاصرٌ عنك في دقائقَ مخترعة، أنتَ فيها نسيجٌ وحدك، وقاعدٌ عما تقومُ به من لطائفَ مبتدعة، أنتَ فيها وحيدٌ عصرك، أنتما متفقان في ظاهرٍ يسرُّ الناظر، وباطنٍ بسوءِ الخابر، وفي تبادلِ الأبدال، والتحول من حالٍ إلى حال، وفي بثِّ حبالِ الزور، ونصبِ أشراكِ الغرور، وفي خلفِ الموعود، والرجوع في الموهوبِ وفيه فضاةً تضامٌ ما يعير، وشناعةً ارتجاع ما يمنح، وقصدٌ مشاركة الأحرار<sup>(3)</sup>، والتحامل عند ذوي الأخطار، فيتكذبُ الظنون، والميلُ عن النباهة للخمول، إلى كثيرٍ من شيمك التي أسندتما إليهما، وسنتكما التي تعاقدتما عليها، فأين هو ممن لا يجاري فيه نقصُ عرى العهود، ونكتُ قوى العقود؟ وأنى هو عن النميمة والغيبة، ومشى الضراء في الغيلة، والتنفق بالنفاق في الحيلة، وأين هو ممن ادعى ضروبَ الباطل، والتحلي بما هو منه عاطل، وتنقص العلماء والأفاضل؛ هذا إلى كثيرٍ من مساويٍ منثورةٍ أنتَ ناظمها، ومخازٍ متفرقةٍ أنتَ جامعها، أنتَ -أيدك اللهُ- إن سويتهُ بنفسك، ووازنتهُ بوزنك، أظلمَ منه لذويه، و أعقَّ منه لبنيه؛ وهبك على الجملة قد زعمتَ - مفترياً عليه - أنه أشدُّ منك

(1) روم ويريع: كلاهما بمعنى الطلب.

(2) معاهدك ومعاهدك: يريد أنهما متفقان.

(3) المشاركة: المخاصمة.

قدرة، و أعظم بسطة، وأتم نصره، وأطلق يداً في الإساءة، و أمضى في كل نكايه شباة<sup>(1)</sup>، وأحد في كل عاملة شداة<sup>(2)</sup>، و أعظم في كل مكروه متغلغلان ، و آلف إلى كل محذور متوصلاً، إن الدهر الذي ليس بمعتب من يجرع، وإن العتب منك مأمول، ومن جهتك مرقوب، وهيهات ! فهل توهم أنه لو كان ذا روح وجثمان، مصوراً في صورة إنسان، ثم كاتبته إلى رعاية المقة ، واستعد على ما أشاعه الفراق في نفسي من اللوعة، و أضرمة بالبعاد في صدري من الحرقه، كان يستحسن ما استحسنته من الإضطراب عند جواب، و يستجيز ما استجزته من الإستخفاف بكتابي".

وله فصل في هذه الرسالة، وقد ذكر دعواه في العلم:

"وهبك أفلاطون نفسه فأين ما سننته من السياسة، فقد قرأناه، أتجد فيه إرشاداً إلى قطيعة صديق، وأحسبك أرسطاً طاليس بعينه، أين ما رسمته من الأخلاق؟ فقد رأيناها، فلم نر فيه هداية إلى العقوق، وأما الهندسة فإنها باحثة عن المقادير، ولن يعرفها إلا من جهل مقدار نفسه، وقدّر الحق عليه وله؛ بل لك في رؤساء الآداب العربية منا ريح ومضطرب، ولسنا نشاحك، ولكن أتحب أن تتحقق ملك الضلال قيادي حتى أشكل على ما يحتاج إليه الممزوجان، ولا يستغني عنه المتألفان ، وهما ممازجة طبع، وموافقة شكل وخلق، ومطابقة خيم وخلق، وما وصلتنا حالاً تجمعنا على ائتلاف، وحممتنا من اختلاف، ونحن في طرفي ضدين، وبين أمرين متباعدين، وإذا حصلت الأمر وجدت أقل ما بيننا من البعاد، أكثر مما بين الوهاد والنجاد، وأبعد مما بين البياض والسواد، وأيسر ما بيننا من النفار أقل ما بيننا من النضار، وأكثر ما بين الليل والنهار، والإعلان والإسرار"<sup>(3)</sup>.

### التحليل

هذه هي الرسالة الأخيرة من ابن العميد إلى صديقه ابن أبي عبد الله الطبري. وهي كسابقاتها رسالة إخوانية صدرت عن الأستاذ الرئيس إلى صديقه، بدأها بالحديث عن نفسه ومخاطبة صديقه رافعاً من شأنه، فقال له: "أخاطب الشيخ سيدي"، ومن ثم دعا له بأن يطيل الله بقاءه. وبعد هذا، طلب منه أن يسمح له أن يبث شكواه ومكابدته على انقطاع أخبار صاحبه ووصاله له. ويبرر ذلك بأن هذا

(1) السنان: حده.

(2) الشداة: بقية القوة، وحد كل شيء .

(3) القيرواني، أبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ج3، ص، 875-880.

أصبح فوق احتمالته، فيقول: "ولو بقيت في التصبر بقية لسكت، ولو وجدت في أثناء وجدي مخرجة يتخللها تجلد لأمسكت".

ويمضي فيعبر عن أسبابه وعن الأسباب التي جعلت بركان احتمالته ينفجر لشدة الهجران. فإن أفعال صاحبه تجعل الجلم ينفذ، وهذه ليست عادة ابن العميد، إذ أن من عادته الاحتمال والاعضاء عن أصدقائه، ولكن فعلة صاحبه جعلته يبيت مثل هذا العتب، ومثل هذه المكابدة.

وجعل صاحبه والدهر متحالفين على الإضرار به، والعمل على تلويعه وزيادة وجده. ويزيد على هذا، فيجعل الدهر أرق في تعامله معه، فيشكو الدهر إلى صاحبه لأمله أن يستجيب الدهر له. ويجعل صاحبه والدهر أخوين أَرْضَعَا من لبان واحد، ولكن مرارة فراق صاحبه أقسى عليه من نوائب الدهر.

ويزيد على هذا، ويذكر صاحبه بأن الدهر ليس بمُعْتَب من يجزع، لأنه ليس إنسان، ولكن العُتْبَى تكون مرجوة من الإنسان، ويقول لو أن الدهر له روح وجثمان، وتصور بصورة إنسان، لكان أضفى على صاحبه بشيء من الحنان، أي أنهما، وكما أشرنا آنفاً، متحالفان متعاقدان على النوائب والإضرار.

ويشير في فصل لاحق من الرسالة إلى العلوم التي تحلى بها صاحبه، فمثلاً يقول أنه أخذ من أفلاطون السياسة، حيث يقول: "وهبك أفلاطون السياسة"، ويتساءل: هل في سياسة أفلاطون ما يدعو إلى قطع الأصدقاء؟ "أتجد فيه إرشادا إلى قطيعة صديق"، فإننا قرأنا ما جاء به أفلاطون، فلم نجده يدعو إلى ذلك.

ويشبهه بأرسطاطاليس، ويقول بأنه أخذ منه الأخلاق، فهل في أخلاق طاليس ما يدعو إلى عقود الأصدقاء؟ فيقول: "وأحسبك أرسطاطاليس بعينه، أين ما رسمته من الأخلاق؟ فقد رأيناها، فلم نر فيه هداية إلى شيء من العقود"، "فإن كل العلوم التي تتحلى بها لا تدعو إلى مثل هذا وإذا أسمعت التصميم على ذلك، فسيكون الاختلاف والبعاد بيننا بشكل كبير، ولا مجال للالتقاء".

بعد تأملنا في النص ومغزاه، لا بد أن ندقق النظر في جودة وزخرف بنائه. ولننظر إلى الأساسات التي أعطت هذا البناء قوة ومتانة. ومنها السجع الذي نجمه بما يلي:

(قلبه، كربه)، (به، أوصابه)، "لسكت، لأمسكت"، "نسق، متنسق"، "لبان، عنان"، "وحدك، عصرك"، "الزور، الغرور"، "الباطل، عاطل، الأفاضل"، "النجاد، السواد"، "النفار، النصار، النهار، الإسرار".

وعلى خلاف ما جاء في الرسالة الماضية، إذ نلمح للجناس بريقاً يضيء نص هذه الرسالة، فمنه: "الباطل، عاطل"، "النفار، النصار، النهار"، "العهود، العقود"، "الغيبية، الغيلة، الحيلة"، "شباة، شداة"، "خلق، خُلق".

وتشتمل أيضاً على الطباق الذي يدل على الموازنة بين حالتي الوصل والهجران، ومنه: "ظاهر، باطن"، "يسر، عسر"، "البياض، السواد"، "ائتلاف، اختلاف"، "أقل، أكثر"، "الليل، النهار"، "الإعلان، الإسرار".

وكدأب ابن العميد، فإن رسالته تمتلئ بالمترادفات، ومنها: "يروم، يريغ"، "فضاعة، شناعة"، "العهود، العقود"، "منثورة، متفرقة"، "الفراق، البعاد"، "اللوعة، الحرقه".

وبعد هذا نلاحظ أن هذه المعاتبة التي أجراها ابن العميد في رسالته، جاءت عن مكابدة قوية عاشها نتيجة هجران صاحبه، ونستطيع أن نجزم بمتانة العلاقة التي ربطت بينهما، وإلا لم يكن ابن العميد ليهتم بشخصية كهذه. وقولنا هذا لا نأخذه على الإقلال من الطبري، ولكن على رفعة ومكانة ابن العميد الأدبية والسياسية. وربما يكون هناك شيء غامض غير معروف إلينا أدى إلى اهتمام ابن العميد بهذه الشخصية. وليس لدى الباحث من الدراسات ما يؤكد هذا أو ينفيه، إذ لم يرد فيها أي شيء من علاقتهما سوى الرسائل الخمس.

ومهما يكن من الأمر، فإن أسلوبه كان رائعاً يثير اهتمام القارئ ويجعل لرسائله جمالا، بل يجعلها من عيون الرسائل في المشرق.



## وقد خلصت إلى النتائج التالية:

1. يستمر ابن العميد في ترسله لأبي عبد الله الطبري، والتي يبث فيها أشواقه ومشاعره نحو صديقه، شأنه شأن رسائله الأخرى.
2. كما تسجل هذه الرسالة ضمن الرسائل الإخوانية، وهي في نفس الوقت تعتبر من الرسائل الأدبية التي اظهر فيها ابن العميد براعته في نسجها على هذا النسق المنمق.
3. كما اشتملت هذه الرسالة على كثير من المحسنات البديعية فمن السجع الذي أورده ابن العميد:
  - يروم الترويح عن قلبه، ويرفع التفريح عن كربه
  - . . . بعض ما به، . . . من أوصابه .
  - . . . لسكت، . . . للأمسكت .
  - . . . على نسق، . . . مطرد متسق .
  - . . . رضيحي لبنان، . . . شريكي عنان .
  - . . . نسيج وحدك، . . . وحيد عصرك .
  - . . . حبائل الزور، . . . أشراك الغرور .
  - . . . الباطل، . . . عاطل، . . . الأفاضل .
  - أشد منك قدرة، وأعظم بسطة، وأتم نصره .
  - أكثر مما بين النهاد والنجاد، وأبعد مما بين البياض والسواد،
  - وأيسر مما بيننا من النفار، وأقل ما بيننا من النصار، وأكثر ما بين الليل والنهار، والإعلان والإسرار.

## 4- من الطباق الذي أورده :

- ظاهر/ باطن.
- يسر/ عسر.
- ائتلاف/ اختلاف.
- أقل/ أكثر.

- الليل/ النهار.
- الإعلان/ الإسرار.

5- وأما الترادف فقد ظهر فيما يلي:

- يروم/يرىغ.
- تبديل الأبدال والتحول من حال إلى حال .
- فظاعة/ شناعة.
- العهود/ العقود.
- منثورة/ متفرقة.
- الفراق/ البعاد.
- اللوعة/ الحرقه.

6- وقد أورد ابن العميد في جملة بعض الاستعارات مثل قوله:

- فقديماً لبست الصديق على علاته .
- وذهب من نفسي من ظلمك ما انزف حلمي فجعله هباء.
- وهل نشكوك إلى الدهر حليفك على الأضرار.
- وإن كنتما في قطيعة الصديق رضيحي لبان.

وبعد القراءة والتحليل، نستطيع أن نجمل لرسائله - بشكل عام -، ورسائل الطبري بشكل

خاص الخصائص التالية:

1. وضوح المعاني وصحة الأسلوب. إذ خدمت المعاني والأسلوب ابن العميد في إقامته رسائله يتقبلها، بل ويعجب بها القارئ.
2. استخدام المحسنات البيعية. إذ لا تخلو رسالة من رسائله من المحسنات، مما أضفى عليها جمالا وانسياباً.

3. جاءت رسائله إلى ابن أبي عبد الله الطبري رسائل إخوانية، وهذا ما لمحناه من خلال التحليل، إذ نرى أن العاطفة ترتفع في سياق النصوص، وهي عاطفة الشوق.
4. خلو رسائله للطبري من البسمة، والدخول في الموضوع مباشرة، وإن كان يدعو لصاحبه في بعضها، وربما يكون هذا لأن هذه الرسائل ليست رسمية، بل هي من صديق إلى صديقه، ومعروف أن الرسائل الإخوانية هي تعبير عن المشاعر، ولا تهم فيها الرسميات، فيكتب فيها الصديق كما يشاء، وإذا كنا نفضل أن يكون كل عمل يبدأ بالبسمة، لأنه كما قال (ص): "كل عمل لا يبدأ بالبسمة فهو أبتري".
5. كثرة الإطناب في رسائله، وجاء هذا جلياً في رسائل الطبري، ولكنه لم يبعث على الملل والسأم، وخدم موضوعات الرسائل، كنا قد شعرنا ببعض الإطالة في الرسالة الرابعة.
6. المجاز يبدو أن ابن العميد في إخوانياته تتفتح قريحته للتشبيهات والاستعارات، فكما نرى المجاز يرتفع من رسالة إلى أخرى في رسائله إلى ابن أبي عبد الله الطبري.
7. ركزت هذه الرسائل على موضوعات متعددة، كان من أبرزها معاتبة الصديق على فراقه وهجرانه، نصح الصديق في كيفية التعامل مع الأمراء، وموضوعات أخرى.
8. الخاتمة: إذ إن ابن العميد في الرسائل الخمس كان يختم حديثه عندما يرى أنه أوصل فكرته دون الحاجة إلى الخاتمة التقليدية في الرسائل الرسمية.
9. يعد العرض البحر الذي يجيد ابن العميد الغوص فيه، إذ انه يظهر كافة مواهبه الإبداعية في ثنايا الرسائل، فنراه لا يهتم بالمقدمة والخاتمة قدر ما يهتم بعرض الموضوع.

## الرسائل التأمليّة: وصف السفن

من رسالة له جاء فيها:

" . . . وكانّ العشاريات وقد ردينَ بالقار<sup>(1)</sup>، وحلّينَ باللجين والنضار، عرائسُ منشورة الذوائب، مخضوبة الحواجب، موشحة المناكب، مقلدة الترائب، متوجة المفارق، مكللة العواتق، فضية الحل والقراطق، أو طواويسٍ ابرزت رقابها، ونشرت اجنحتها واذنابها، وكأنها إذا جدّت في اللحاق، وتنافست في السباق، نوافر نعام، أو حوافل أنعام، أو عقارب شالت بالابر، أو دهم الخيل واضحة الجول والغرر، كأنّ المجاديف طيرٌ تنفضُ خوافيها، أو حبابٌ تعانقُ حبابَ بايديها. . . " (2).

## التحليل:

وكان لابن العميد إبداع أدبي منثور في رسائله ليس لأحد، بل لتعبير عن فن أو عن شيء أثار في نفسه دهشة وإعجاباً. ومن ذلك حديث أورده خليل مردم بك، الذي أورده عن ابن العميد ولم يوثق مصدره.

فجاء حديثاً راقياً مصنوعاً مبتدعاً بأرقى الطرق في التعبير، فأكثر فيه من المحسنات البديعية المجازية، كأن شبه مجاديف السفينة بالطير الذي ينطلق مسرعاً، أو الحبيب المشتاق لعناق حبيبه، فتسرع المجاديف حتى تكاد تضم بعضها بعضاً من الخفة والسرعة والرشاقة.

وما يثير الإعجاب أن جعل السفينة التي أطلق عليها العشاريات عروساً في ليلة زفافها، إذ قال: "وكانّ العشاريات... عرائس منشورة الذوائب، مخضوبة الحواجب<sup>(3)</sup>... وهذا دليل على الإبداع، ويتغزل بمناكبها، وكل أجزاءها، كصب عاشق يتغزل بمعشوقته.

(1) القير والقار لغتان، وهو صُعدُّ يذاب فيستخرج منه القار وهو شئ أسود تظلى به الإبل والسفن، يمنع الماء أن يدخل ومنه ضرب تحشى به الخلاخيل ولأسورة . وقيرت السفينة: طليتها بالقار والقار هو شجر مرّ، قال بشر بن أبي حازم: "يسومون الصلاح بذات الكهف، وما فيها لهم سلع وقار" .

(2) خليل مردم بك، ابن العميد، ص 86.

(3) أي محنيات بالحنة.

هذه أمثلة بسيطة عما جاء في هذه الرسالة من بلاغة ومجاز؛ وإن ذكرت السجع، فحدث ولا حرج، ولنذكر أمثلة دالة على ذلك منها: (القار، النضار)، (الدوائب، الحواجب)، (المناكب، الترائب)، (المفارق، العواتق)، (رقابها، أذنبها)، (اللاحق، السباق)، (نعام، أنعام)، (الإبر، الغرر)، (خوافيها، أيديها). ولم يُذكر الجنس إلا في موضع واحد من هذه القطعة من الرسالة وهو: (نعام، أنعام).

ومن الجدير بالذكر، أن ابن العميد يرتفع أسلوبه عندما يستخدم المجاز، ويعبر عن موقف أثار في نفسه دهشة، فيمكننا أن نعتبر هذه القطعة مناجاة نفس، يشير فيها بأسلوب جميل وواضح ومصنوع في آن واحد عما تكتنزه قريحته من خيال.

### رسالة في فتح

وكتب رسالة في ذكر فتح جاء منها:

"... وقد خصنا الله تعالى معاشرَ عبيدِ الأميرِ عضدِ الدولةِ لنعمةٍ يعلو مراتبَ النعمِ موقعها، ويفوتُ مقدارَ المواهبِ موضعها، فباسمه - ابقاه الله - فتحَ الفتح، وبشعاره استنزلَ النجاح، وبيمين نقيته فرجَ الكرب، وبسعادةٍ جده كشفَ الخطب، وباهتزازهِ للدولةِ وحمايته عادَ إليها مأوها، وراجعها بهاؤها، فعزَّ الملكُ ونُصر، وذلَّ العدوُّ وفُهر، وحُميت أطرافُ الدولة، وحُفظت أكنافُ الملة، واستجدَّ نظامُ النعمة، وسدلت ستورُ الصيانةِ دونَ الحرمة. ولو جعلَ المولى -تقدسَ اسمه- لنعمته إذا تناهت على عبيده جزاءً غيرَ الإخلاص في شكره، وقبلَ ما في المقابلةِ الموهبة التي يستجدها عندَ خلقه غيرَ الإغراق في حمده، لرأيتُ أن لا اقتصرَ في قضاءِ حقه على بعض الملكِ دونَ بعض، ولجعلنا في صدرِ عن هذه النعمةِ الأعزِينَ؛ الأهلُ والولد، والأنصرين؛ الساعدُ والعضد، بل العميدين؛ القلبُ والكبد، بل النفسُ كلها، والمهجةُ بأسرها".<sup>(1)</sup>

### التحليل:

جاءت هذه الرسالة على لسان ابن العميد مبتهجا بها بفتح حدث في ظل عضد الدولة، فمدح الأمير وبين صفاته وفضله، وبين أنه لولاه لما تمكن للدولة هذا الاستقرار ومثل هذا الفتح.

(1) خليل مردم بك، ابن العميد، ص86.

وجرى فيها عاداته في الرسائل، فوازن وسجع بين الجمل ومن أمثلته: (موقعها، موضعها)، (الفتح، النجح)، (الكرب، الخطب)، (ماؤها، بهاؤها)، (نصر، قهر)، (الدولة، الملة)، (النعمة، الحرمة)، (شكره، حمده)، (الولد، العضد، الكبد)، (كلها، بأسرها) . وجاء في هذه الرسالة مثال على المقابلة وهو طباق بين جملة وجملة، وهو : (فعر الملك ونصر، وذل العدو وقهر). ولم تخلُ هذه القطعة من الترادف، فجاء بكثرة، ونذكر منه: (عاد إليها، راجعه)، (حميت، حفظت)، (شكره، حمده)، (النفس، المهجة)، (كلها، بأسرها).

وجاءت في الرسالة مجازات لطيفة منها، أن شبه الأمن والاستقرار في عهد عضد الدولة بالسنائر المسدلة التي تصون حرمان الناس وتحفظها. وشبه النعمة أن أصبح لها نظام ينسقه ويرتبه عضد الدولة، ونرى أن المجاز لم يرتفع في هذه الرسالة الرسمية كما كان في رسائله الإخوانية.

وأظهرت هذه القطعة بعض الثنائيات التي تعبر عن إعجابه وحبه لعضد الدولة، وهي ثنائيات تعز على الإنسان حينما قال: "لجعلنا في صدر عن هذه النعمة الأعزین: (الأهل والولد، والأنصرین: الساعد والعضد، بل العميدین القلب والكبد)، وهذه ثنائيات ليس من السهل على الإنسان أن يقدمها أو يبذلها إلا في سبيل شيء نفيس وغال.

وتمتاز هذه الرسالة بقصرها ووضوح ألفاظها، وسهولة معانيها، وبراعة أسلوبها، ولكننا نقف حائرين أمام هذه القطع من مثل هذه الرسائل، إذ أنها لا تبدأ ببسملة، ولم توثق إلا من مصدر واحد وهو خليل مردم بك.

ولكننا لا نستطيع إلا أن نقول بأنها نص أدبي يستحق الوقوف عليه والتأمل فيه.



وممنوٌ بأيام تحاكي ظلَّ الرمح طولاً، وليالٍ كابهام القطاة قصرأ، ونوم كلاً ولاقطة، وكسحو الطائر من ماء الثمادِ دقة<sup>(1)</sup>، وكتصفيفة الطائر المستحر خفة:

كما ابرقت قوما عطاشا غمامة فلما رجوها أقشعت وتجلت

وكنقر العصاكير وهي خائفة من النواطير يانع الرطب<sup>(2)</sup>

وأحمدُ الله على كلِّ حال، وأسأله أن يعرفني فضلَ بركته، ويلقيني الخيرَ في باقي أيامه وخاتمته، وأرغبُ إليه في أن يقربَ على القمرِ دوره، ويقصرَ سيره، ويخففَ حركته، ويعجلَ نهضته. وينقصَ مسافةَ فلكه ودائرتَه، ويزيلَ بركةَ الطول من ساعاته، ويردِّدَ عليَّ غرةَ شوالٍ فهي أسرُّ الغررِ عندي، وأقرأها لعيني، ويسمعني النعرة<sup>(3)</sup> في قفا شهر رمضان، ويعرضُ عليَّ هلاله أخفى من السر، وأظلمَ من الكفر، وأنحفَ من مجنون بني عامر، وأضنى من قيس بن ذريح، وأبلى من أسير الهجر، ويسلطُ عليه الحورَ بعد الكور<sup>(4)</sup>، ويرسلَ على رفاقته التي يغشى العيونَ ضوءها، ويطءُ من الأجسامِ نوءها<sup>(5)</sup>، كلفاً يغمرها، وكسوفاً يسترها، ويرينه مغمورَ النور، مقمورَ الظهور، قد جمعه والشمسُ برجٌ واحدٌ ودرجةٌ مشتركة. وينقصُ من أطرافه كما تنقصُ النيرانُ من طرفِ الزند، ويبعثُ عليه الأرضة، ويهدي إليه السوس، ويغري به الدود، ويبيله بالفار ويخترمه بالجراد، ويبيده بالنمل، ويجتحفه بالذر، ويجعله من نجوم الرجم. ويرمي به مسترقَ السمع. ويخلصنا من معودته، ويريحنا من دورته، ويعذبه كما عذبَ عباده وخلقه، ويفعلُ به فعلته بالكتان، ويصنعُ به صنعةً بالألوان، ويقابله بما تقتضيه دعوةُ السارق إذا افتضحَ بضوئه، وتهتكَ بطلوعه (ويرحم الله عبداً قال آمينا)<sup>(6)</sup> وأستغفرُ الله - عزَّ وجلَّ وجهه - مما قلته إن كرهه، وأستغفیه من توفيقی لما يذمه، وأسأله صفحاً يفيضه،

(1) الثماد: الماء القليل.

(2) البيت من المنسرح، والكاف ليست منه، وإنما اجتلبها للتشبيه.

(3) النعرة: الأمر الذي بهم به.

(4) الكور: موضع الزنابير، وهي من الذباب الأليم اللسع، والحور بعد الكور: الزيادة بعد النقصان.

(5) النوء: الاضطراب والشدة، وهنا بمعنى الكواكب.

(6) هذا عجز بيت من البسيط ينسب لمجنون ليلي وصدرة "يا رب لا تسلبني حبها أبداً.



وعفواً يسيغهم، وحالي بعد ما شكوتهُ سالحة، وعلى ما تحبُ وتهوى جارية، واللهُ الحمدُ تقدستُ أسماؤهُ والشكر" (1).

## التحليل

هذه الرسالة جاءت بمثابة فصل دعابي من ابن العميد عن شهر رمضان، وإن كان هناك كثير ممن حملها أكثر مما تحتمله. ولكن الباحث أراد أن يأخذها على سبيل الهزل والدعابة لا أكثر، فلا نريد أن نتطرق إلى الميول الدينية لابن العميد والتأثيرات المنهجية الأخرى، ولنمضي متأمليين في بناء هذه الرسالة لنستكشف فنونها البديعية وجمالياتها.

يبدأها بالدعاء إلى الله أن يعرفه فضل هذا الشهر وبركته، يدعو لنفسه بالثبات والصبر إلى خاتمته. ولكن ابن العميد ربما يكون قد أدركه رمضان في شهر من شهور الصيف الحارة فجهد من الصيام لذا قال: "وأرغب إليه في أن يقرب على الفلك دوره، ويقصر سيره"، ويتمنى الأستاذ الرئيس أن تقل بركة ساعاته بأن تمضي بسرعة، وما ينطبق على ساعات اليوم الواحد ينطبق على جل أيام الشهر فيقول متمنياً ذلك: "وينقص مسافة فلكه ودوائره، ويزيل بركة الطول من ساعاته"، وبعد ذلك يصف لنا شغفه وشوقه في رؤية غرة شوال فيقول: "ويرد علي غرة شوال، فهي أسنى الغرر عندي، وأقرأها لعيني" ويصفها بأنها أسنى الغرر وأحبها إليه، فهي تجعله هنيئاً قرير العين.

ويمضي ابن العميد مسترسلاً فحتى الهلال يتمنى له الزوال والخفوت بطريقة بنائية جميلة، فهو يتمنى للهلال أن يكون أنحف من مجنون بني عامر، وأبلى من أسير الهجر، وهذا مما ضربت به العرب الأمثال بالضعف والبلاء، وفي خاتمة رسالته يستغفر ربه على ما قال وأفاض في ذكره من ثقل وتذمر من شهر فضيل، وهو شهر رمضان.

أما من الناحية الفنية، فقد جاءت هذه الرسالة كسابقاتها من الرسائل على الرغم من قصرها، فهي تحتوي فنونا كثيرة، إذا بحثت عن السجع تجد منه الكثير مثل: (بركته، خاتمته)، (دوره، سيره)، (حركته، نهضته)، (يفيضة، يوسعها)، (دائرته، ساعاته)، (عندي، عيني)، (السحر، الكفر، الهجر).

(1) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص 190-192.

وقد خلت هذه الرسالة من الجناس والطباق، وطبيعي أن تخلو مثل هذه الرسائل من الطباق؛ لأنه لا يتحدث عن مقارنة بين حالين أو صنفين. وأما المجاز فقد نال حظاً وافراً من هذه الرسالة، ونذكر من أمثله تصويره لهلال شهر رمضان بالإنسان، ويتمنى لهذا الإنسان أن يبتلئ بالضعف والبلاء مثل مجنون بني عامر وأسير الهجر.

ويستطرد في تمنيه للهلال بأن يجعله الله من نجوم الرجم، ويغزي به الدود والسوس، ويسمعه النعرة في قفا هذا الشهر، وهذه استطرادات ساقها ابن العميد بأسلوب فكاهي تبعث الحيوية في نفس القارئ، ومعلوم أن هذه الأمراض والأدعية التي دعاها ابن العميد على الهلال إنما تدعى على إنسان سيء، وفي هذا تشخيص عالي الجودة، وهذا التشخيص صاحب الرسالة من مطلعها وحتى نهايتها، فنراه يقول جعلني الله فداك، وهذا دعاء إنما يقال للإنسان، وحتى إلى آخر الرسالة حينما يدعو على الهلال بأن يفتضح الله كما يفتضح السارق أو المجرم المثبت عليه جرمه، هذا ما ارتاه الباحث في شأن هذه الرسالة التي فاضت بها قريحة الأستاذ الرئيس، والتي جاءت من أجل الفن، ولم توجه لإنسان بعينه، وخالصة القول أن هذه الرسالة احتوت مجموعة من الخصائص يمكن إجمالها فيما يلي:

1. احتوت هذه الرسالة على كافة العناصر الخاصة بالرسائل، فقد احتوت على مقدمة وعرض وخاتمة.
2. الدخول إلى صلب الموضوع مباشرة وهو الحديث عن معاناته من شهر رمضان.
3. اشتملت على معظم المحسنات البديعية، ولكنها خلت من الطباق والجناس، كما أسلفنا.
4. استخدام المجاز والتشبيه العالي المستوى.
5. وضوح الألفاظ وجمال الأسلوب، إذ خدم كل من اللفظ والمعنى الآخر ونتج عن ذلك إخراج هذا النص الجيد.
6. الإقتباس من النصوص الشعرية ومن الحياة العامة، إذ تضمنت هذه الرسالة بعضاً من أبيات الشعر كاستشهاد بتأييد رايه وبعض الأمثلة من الحياة العامة التي استخدمها في الدعاء على الهلال.

7. عدم الابتذال، إذ يشعر القارئ أن الكلمات والفكار تنساب على لسانه دون أن يتعمدها أو يكلف نفسه عناء البحث عنها.<sup>(1)</sup>

---

<sup>(1)</sup> الحصري القيرواني، 1925، زهر الآداب، المطبعة الرحمانية: القاهرة، ج2، ص 244.

## الخاتمة

لقد أخذت هذه الدراسة اهميتها كونها سلطت النظر على كاتب لم تعن به الدراسات السابقة ولم تذكره الا على سبيل الاستشهاد كنماذج منثورة في بطون الكتب فلم يجد الباحث في حدود ما قرا دراسة تجمع اخبار ابن العميد ورسائله وجاءت هذه الدراسة المكونة من ثلاثة فصول عارضة في فصلها الاول الى واقع الرسائل وما وصلت اليه في القرن الرابع الهجري ومن ثم تحدثت بشيء من الاجاز عن دولة بني بويه وعن وزيرنا الاستاذ الرئيس ابن العميد وذكرت سنة الولادة والوفاة وتوصلت الى ترجمة مفصلة عن هذا الاديبي الذي عده الادباء مسك الختام للرسائل العربية

وانتقلت في فصلها الثاني الى ابراز مواقف النقاد والادباء من شخصيته ومثلها الفصل موقف الثعالبي الذي كان اكثرهم موضوعية في نقده وحديثه عن ابن العميد وبعد عرضت صورتين متناقضتين تماما في مواقفهما من شخص ابن العميد فأظهرت تعصب التوحيدي عليه وتقريضه له وتحيز مسكويه اليه ومدحه له ثم قام الباحث بتفنيد هذه الاراء والرد عليها وبعد ارتأى الباحث ان يعرض صورة له عند شاعر لا يختلف اثنين على شاعريته وهو ابو الطيب التنبي.

ونال الفصل الثالث الحظ الاوفر من الدراسة ، فقد قام الباحث بجمع ما استطاع ان يصل اليه من رسائل ابن العميد التناثرة في بطون الكتب وعرضها والتعليق عليها وابرار السمات الفنية فيها ومن ثم قسمها الى ثلاثة انواع اخوانية ورسمية وتاملية، وبعد فقد حاول الباحث ان يستخرج ما في هذه الرسائل من فنون بديعية تميّز ابن العميد واسلوبه و سلامة معجمه اللغوي و انتقاء اسلوبه البديعي بشكل يجعل الكلمات والاسلوب مستعذب بالنسبة للقارئ.

وعانت هذه الدراسة من عدم توفر الدراسات السابقة في المكتبات العامة اذ لم توجد سوى دراسة واحدة وهي "فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد" خصصت جزء منها في للحديث عن ابن العميد مما شكل معاناة في الاستناد الى الدراسات الحديثة وحتى القديمة ومما عانت منه ايضا هو تشابه التراجم في الكتب اذ ان الباحث وجد تشابها كبيرا يشابه النسخ في بعض الاحيان في الترجمة بين كتاب واخر ومما زاد في اهمية هذه الدراسة ضياع كتب ابن العميد وعدم توفر المخطوطات التي تساعد في جمع الاخبار والرسائل اذ ان الباحث وجد ومن خلال الكتب اسماء بعض كتب منسوبة الى ابن العميد ولكن ليس لها وجود في المكتبات العامة مثل كتاب المذهب في البلاغات

او مذاهب البلغاء وغيره هذه ابرز المشاكل التي واجهت الباحث خلال دراسة هذه الاطروحة وربما تعززت فكرة دراسة هذه الدراسة نتيجة لذلك.

هذه هي خلاصة الدراسة ويتمنى الباحث ان يكون قد اضاف نتاجا جديدا يفيد مكتبتنا العربية ويمهد بساطا من خلال هذه الرسائل للدارسين اذ ان هذه الرسائل تلزمها دراسات اسلوية بشكل اوسع وهي صالحة لتطبيق مختلف المناهج النقدية عليها واتمنى ان يوفق الله صاحب البحث ليخرج في ابحاث همها الاول الدراسة النقدية لهذه الرسائل ويوصي الباحث بدراسة نتاج ابن العميد الشعري اذ ان به نتاجا شعريا مبعثرا لو جمع لصلح ان يشكل ديوان شعر.

هذا ما تمكن الباحث من الوقوف عليه فان وفق فمن الله العلي القدير وان لم يوفق فلعجزه وضعف حجته ويتمنى من الله السداد.

## المصادر والمراجع

- الأتابكي، (1992)، جمال الدين بن أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (813-874)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ط1، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ج4، دار الكتب العلمية: بيروت.
- ابن الأثير أبو الحسن عبي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، **الكامل في التاريخ**، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، (1415هـ)، ط2.
- إسماعيل عز الدين، (1975)، **في الأدب العباسي، الرؤية والفن**، ط1، دار الهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت،
- إسماعيل، أبو منصور عبد الملك بن محمد، (1956)، **الثعالبي**، ط2، ج4، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى: القاهرة.
- الأصبهاني، (1981)، **رياض العلماء وحياض الفضلاء**، ط1، ج5، للمتبع الخبير جعة التاريخ الميرزا عبد الله أفندي الأصبهاني، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مطبعة اليوم.
- بزرگ آغا والطهراني محسن بن علي بن محمد رضا، (1956)، **طبقات أعلام الشيعة**، ط1، الطبعة العلمية، النجف.
- البغدادي اسماعيل باشا، (1982)، **هدية العارفين**، ط1، دار الفكر: القاهرة.
- التوحيد أبي حيان، (1961)، **كتاب مثالب الوزيرين**، ط1، تحقيق: د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر: دمشق.

الثعالبي أبو منصور، (1994 - 429هـ)، الإعجاز والإيجاز، ط11، منشورات المكتب العالمي للطباعة والنشر، دار مكة للطباعة والنشر: بيروت.

الثعالبي، ابو منصور عبد الملك بن محمد اسماعيل، (1956)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ط2، ج2، ج3، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، (1997 - 350 - 429هـ)، اللطف واللطائف، ط1، تحقيق: محمود عبد الله الجادر، عالم الكتب: بيروت.

الجاحظ، (2001)، البيان والتبيين، السفر الاول، ط1، اختيار وتقديم: د.نهاد نور الدين جرد، منشورات وزارة الثقافة: دمشق.

الحافظ الذهبي، (1961)، العبر في خبر من غير، ط1، ج2، تحقيق: فؤاد حسين، ترجمة، الكويت.

حب الله الشيخ علي، (2001)، المقدمة في نقد النثر العربي، ط1، دار الهادي للطباعة والنشر: بيروت لبنان، نقلاً عن البيان والتبيين للجاحظ.

حجاب محمد نبيه، (1965)، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ط1.

الشيخ محمد بن الحسن، (1965)، أمل الآمل، ط1، ج2، تحقيق: السيد احمد الحسيني، مكتبة الأندلس: بغداد.

احمد بن الحسين، الفسر، ابن جني، أبو الفتح عثمان جني الموصلي، (392هـ)، ديوان المتنبي، ط1، دار الينابيع: دمشق.

الحموي ياقوت، (1993)، معجم الأديباء، ج6، (تحقيق إحسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، ط1.

أبو خشب إبراهيم علي، (1974)، تاريخ الأدب العربي، ط1، دار الفكر العربي: القاهرة.  
ابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (608-681هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط1، ج2، ج5، تحقيق: احسان عباس، المجلد الخامس، دار صادر: بيروت.

خليل مردم بك، (1931)، ابن العميد، دمشق، مكتبة عرفه، ط1.  
خورشيد إبراهيم زكي، أحمد الشنتاوي، عبد الحميد يونس، (1969)، دائرة المعارف الإسلامية، ط1، ج1، دار الشعب: القاهرة.

الدروبي محمد محمود، (1999)، كتاب الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث هجري، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: عمان.  
الديباجي محمد، (1989)، الأديباء الصابئة في العصر العباسي، ط1، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلسلة أطروحات ورسائل.

الذهبي، (1979)، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، ط1، تحقيق: حسام الدين القدسي، مطبعة القدس: القاهرة.  
الذهبي الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (1966)، سير أعلام النبلاء، ط11، ج16، تحقيق: أكرم البوشي، أشرف على التحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.



الرازي أبو علي مسكويه، (2002)، تجارب الأمم، ط2، ج6، تحقيق: د. أبو قاسم امامي، دار  
سروش للطباعة والنشر: طهران.

الرابعي، أبو القاسم عبد الكريم بن محمد القزويني، (1987)، التدوين في أخبار قزوين، ط1،  
تحقيق: عزيز الله العطاري، دار الكتب العلمية: بيروت.

الزركلي خير الدين، (2005)، معجم الأعلام، ط16، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

الزهيري محمود، (1949)، الأدب في ظل بني بويه، ط1، طبع بمعونة من وزارة المعارف  
العراقية، مطبعة الامانة: القاهرة، مصر.

زيدان جرجي، تاريخ آداب اللغة، دار الهلال، ط2، ج2، راجعها وعلق عليها: د. شوقي  
ضيف، دار الهلال: القاهرة.

شركين فؤاد، محمود فهمي حجازي، (1991)، تاريخ التراث العربي، ط1، مترجم، جامعة  
الإمام محمد بن سعود الإسلامية: الرياض.

الصفدي صلاح الدين خليل بن أبيك، (2001)، الوافي بالوفيات، ط1، ج2، تحقيق: أحمد  
الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار احياء التراث العربي: بيروت، لبنان.

ضيف شوقي، (1980)، عصر الدول والامارات، ط2، دار المعارف: القاهرة.

ضيف شوقي، (1997)، العصر العباسي، ط10، دار المعارف.

ضيف شوقي، الفن ومذاهبه، ط3، دار المعارف: القاهرة.

طبانة بدوي أحمد، (1963)، صاحب بن عباد الوزير الأديب العالم، ط1، المؤسسة المصرية  
العامة: القاهرة.

العكري أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، (1979)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط2، ج3، دار المسيرة: بيروت.

العلي فيصل طحيمر، مشرف محمد محمود قاسم نوفل، (2001)، فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، (أطروحة ماجستير)، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين.

القيرواني الحصري، (1925)، زهر الآداب، ط2، ج2، ج4، المطبعة الرحمانية: القاهرة.

مبارك زكي، (1957)، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ط2، ج1، ج2، المكتبة التجارية الكبرى: مصر.

المنتبي، (1936)، ديوان المنتبي، ط1، شرح الكبير، ج2، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأوراده: مصر، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، القاهرة،

المقدسي أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، (1979)، ط6، ط11، دار العلم للملايين: بيروت.

ابن النديم أبو الفرج محمد بن اسحاق النديم، (1994)، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم ، ط1، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة: بيروت.

ابن النديم، الفهرست لابن النديم، ج1، دار المعارف للنشر: القاهرة.

الهاشمي أحمد، (1999)، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ط1، مؤسسة المعارف: بيروت.

# LETTERS OF IBN ALAMEED (ARTISTIC STUDY)

By  
Rame Othman Al Marayta

Supervisor

Prof.Hani Subhi Al Amad

## Abstract

This letter concentrated on entire news of ibn al ameed and his letters. This thesis regarded as first study concerned about this subject. It is based on three chapters: the first one focused on the development of the writing at Abbasid era especially the second part of it; it made distinction how topics of letters evolved? It revolved around topics that poetry was as theater for these letters and what are the most distinctive artistic features that dominated over the letters? Rhythm described as embroiderer that adorns the letters in fourth century hegira. Afterwards, the researcher moved to talk about briefly about the country that witnessed an emerging the star Ibn Alameed, it's the country of bowyhz. Then the researcher sets special part only for translation of ibn al ameed news.

Second chapter pointed out the attitudes of critics and writers in that era, in which he begun with althaaalibi. Ibn Alameed considered him the most neutral and objective. Afterwards, he picked two of people represent the highest contradiction of their love and hatred toward Ibn Alameed. They are muskeh and altawhidi, and he replied to their opinions, and revealed the characteristics of Ibn Al ameed through two poems by Al Motanabi. The researcher reckons Almotanabi exaggerated in the poems for praising Ibn Alameed, the reader doesn't believe that these two poems are only in praising him but the researcher

showed other poems in commendation of the star. As a result of this, people agreed that Ibn Alameed is sophisticated person, although the variety in expressing in his personal characteristics.

The third chapter is the core or skeleton of this research. It talked about the letters that the researcher collected them. Then he divided them into three parts, its fraternal, formal and meditative, he dealt with each one apart. Moreover, he analyzed them to show what it's had of artistic literary and figure of speech. After this analysis, the researcher informs us that he added invaluable study. He revised texts that either vanished or neglected deliberately or not on the shelves of Arabic libraries.